

لينين مختارات جديدة

نصوص حول الموقف من الدين

ترجمة : محمد كبّة
مراجعة وتقديم : العفيف الاخضر



دار الطليعة - بيروت

نصوص حول الموقف
من الدين

إهـــــــداء ٢٠٠٧

الأستاذ الدكتور / قدري محمود حفني

جمهورية مصر العربية

لينين

مختارات جديدة

نصوص حول الموقف من الدين

مع مقدمة بقلم العفيف الأخضر
من نقد السماء إلى نقد الارض

ترجمة : محمد الكبة
مراجعة العفيف الاخضر

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

بيروت - ص.ب ١٨١٣

الطبعة الاولى
(ايلول ، سبتمبر) ١٩٧٢

من نقد السماء الى نقد الارض

بقلم العفيف الاخضر

ايها الغِرِ قد خُصصت بعقل فأسألنه ، فكل عقل نبيٌ .

ابو العلاء المعري

لا اطمح بهذا التقديم الى الاجابة عن اسئلة ما زالت معلقة حول الدلالة التاريخية لظهور الأسلام ، حول الفئات والتشكيلات التي عبر عن مصالحها ، حول معنى الصراعات الفكرية الأجتماعية والحروب الاهلية التي دارت رحاها على امتداد قرون تحت رايته، حول الانظمة والمدارس المتباينة بله المتناحرة التي ادعت كلها نسبا اليه ، حول خصوصياته كدين ، من الفه الى يائه ، شرقي ، حول مقارنته بالمسيحية واليهودية المعقلنتين ، وحول الاسباب العميقة لظهور وسقوط بعض الانظمة التي ولدت تحت سمائه ، وحول وضعه الراهن ؛ متعهدا بمحاولة الاجابة عن كل ذلك في كراس قادم . لكن هذا التحفظ لا يعني انني لن أمس الآن هذه او تلك من اشكالات التاريخ الاسلامي الوسيط والحديث وبخاصة

الحركات الشيوعية في القرنين الثالث والرابع .

كل ما اطمح اليه من هذا التقديم هو مساعدة قراء هذا الكتاب الثمين قراءة نوعية : تستلهم من نقد لينين لاوضاع روسيا ومبرريها سلاحا لنقد اوضاعنا الراهنة ومبرريها وعلى رأسهم القيادات «اللينينية» العربية التي تشبه «الفجل حمراء من الخارج وبيضاء من الداخل» (لينين) ، استعدادا لنقدها ونقدهم بالسلاح.

***

من مفارقات تاريخنا الحديث ، وهي تستعصي على العد ، ان هذا الشرق الذي ولد فيه الدين لم يلد فيه ، في تاريخه الحديث، نقد الدين . لان الطبقات الصاعدة التي تجرأت على نقد الدين في تاريخ أوربا الحديث لم يعرفها تاريخنا الحديث الا كطبقات مجهضة تخشى النقد والثورة اكثر مما يخشاهما رجال الدين ورجال الدولة انفسهم .

***

ساد في العصور الاوروبية الوسطى ثلاثي الله ، الملك والعالم في وحدة لا فكاك لها . على امتداد هذه العصور وعلى قامة هذا الثلاثي نمت المعارضات المختلفة وانفجرت الانتفاضات الشعبية ، الثورية والرجعية، التيما كانت تتخفى وراء قناع الدين او المطالبة بكنيسة قليلة النفقات الا لتوجه مسموم سهامها للنظام الاجتماعي الاقطاعي الذي عاش دهره .

من الطبيعي ان يكون نقد سيطرة الاقطاع بالفكر والسلاح نقدا مباشرا للكنيسة التي هي تركيب هذه السيطرة الاكثر شمولا ومبررها الاكثر حماسا. لانه كان على القوى البورجوازية الصاعدة، لكي تحقّر الشروط الاقطاعية السائدة في وعي الجماهير ، ان

تنزع عنها تاج القداسة وتنزل بها من سماء الله الى ارض الناس. وهكذا «تحطمت الديكتاتورية الروحية للكنيسة التي نبذتها اغلبية الشعوب الجرمانية مباشرة باعتناقها البروتستانية . وكان الفكر الحر النشيط الذي اخذته الشعوب الرومانية عن العرب وغذته بالفلسفة اليونانية الحديثة الاكتشاف ، يعمق جذوره اكثر فاكثر عند هذه الشعوب .ويمهد لظهور مادية القرن ١٨ ع» (١) .

قدم تحالف الملك ، الاقطاع والكنيسة نفسه كتجـــل لارادة السماء التي لا مرد لها . اما نظام البورجوازية فقد قدم نفسه وما يزال علىانه تجل لا مرد له هو الآخر **لارادة الاقتصاد** . هكـــذا جعلت البورجوازية مملكتها من هذا العالم. وصنعت الهها بيديها.

تتويج الهها : **الاقتصاد** ، اقتصاد الانتـــاج ثم اقتصـــاد الاستهلاك ، على عرش الارض كان يتطلب ، في البـــدء كشرط ضروري ، نزع تاج اله السماء الذي كان يغطي الارض بظله .

تقلد هذه المهمة فرسان اقلامها الذين عروا حقيقة الوهـــم الديني بكشفهم عن جذوره الارضية : «قهر الحكومة هو الذي يجعل الدين ضروريا . لان الانسان عندما يعيش حياة بائسة يفكر تفكيرا بائسا . تحرير الانسان من الدين مشروط بتحرره مـــن الظلم» (٢) . وكتب ديدرو : «سيظل النوع الانساني بائسا طالما ظلعلى الارض ملوك،قوانين، ملكيةخاصة Le mien et Le tien وكلمات الفضيلة والرذيلة» . وحارب فقهاؤها ، باسم التشريع الروماني ، حملة الكنيسة على الربا ، ظاهريا باسم شريعة المسيح وفي الواقع باسم مصلحة النبلاء ، بعنف لم يفقه ، فيما بعد ، الا

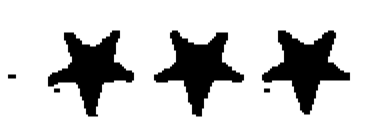
١ ــ انجلز : ديالكتيك الطبيعة .

٢ ــ الكاهن : Don Deschamps فـــي كتابه : Le vrai Système الذي وصفه ديدرو Diedro بانه : احد الكتب الاكثر عنفا واصالة .

عنف البورجوازية والكنيسة معا في محاربة مطالب الطبقة العاملة الفتية .

كان معظم مفكري عصر التنوير ملاحدة. وكانوا عموما ثوريين فكرا وممارسة اذ انهم كانوا طرفا مباشرا في الصراعات والانتفاضات الدورية التي امتلأت بها حقبتهم العاصفة. ولم يكونوا، كما هو حال الكتّاب العرب اليوم على هامشها ، ولم يكونوا ايضا وخصوصا اسرى ضيق افق الطبقة المبتذلة التي ارسوا قواعد سيطرتها . وهذا ما جعل رؤياهم وتحريضهم الثوريين يبلغان ذلك الحد من الراديكالية الذي ضاق به صدر طبقتهم بعد ان سيطرت وسادت. «كان ابطال هذا العصر لم يصبحوا بعد عبيدا لتقسيم العمل الذي كثيرا ما نشعر بالحدود الكبرى التي يفرضها على خلفائهم وضيق الافق الذي يولده عندهم» . (انجلز) . لقد ذهب بعض منهم بعيدا في تحريضه الثوري مثل دوشان ومسليي Meslier الذي حرض العمال بالاضراب العام والعصيان المدني: «اتركوا كليا خدمة هؤلاء الناس العتاة والعديمي الفائدة، اطردوهم طردا من مجتمعكم، وبهذه الوسيلة سترونهم قريبا هشيما كالاعشاب التي لم تعد جذورها تمتص نسغ الارض» (١) .

راديكالية هذا التحريض كانت صدى لراديكاليـــة تمردات الفلاحين الدورية (١٦٣٠ ـ ١٧٨٩) ولأنات الشعب المكبل ومطالبه التي لم تعد تحتمل المماطلة .



لكن القرن ١٨ ع لم يكن خيرا كله : ففيه نزل الانسان من

١ ـ Oeuvre de Jean Meslier. Ed Anthropos

سراب الاقطاع الى مادية البورجوازية الوضيعة ، من التجريـــد اللاهوتي الى التجسيد الدنيوي، من اغتراب الانسان امام الطبيعة الى اغتراب الانسان امام الانسان ، اغتراب العامل امام المعلم عبر سيادة العمل المأجور : «هذا الشكل الملطف من أكل لحوم البشر» (ماركس) . واخيرا نزل الانسان في القرن ١٨ ع مـــن السعادة الوهمية الى الشقاء الفعلي : من الاقطاع الى البورجوازية ولسان حاله يقول : الجنة غير موجودة اما الجحيم فنحن فيه .

لقد عرى النقد البورجوازي للدين الاغلال من الزهور الخيالية التي كانت تغطيها لا لكي يحطم الانسان الاغلال ويجني الزهـــور اليانعة ، بل لكي يحمل اغلاله بمهانة . هنا يكمن الفارق النوعي بين النقد البورجوازي للدين والنقد البروليتاري للدين . هــذا الاخير هو نقد نهر الدموع المكلل بالدين ، هو الانتقال من نقـــد السماء الى نقد الارض الراسمالية ، هو نقد لسلطة الانسان على الانسان في آخر شكليها : البورجوازي والبيروقراطي .

من البديهي ان هذه المهمة لم تكن مهمة البورجوازية بل هي مهمة البروليتاريا الراديكالية راديكالية الاغلال التـــي تحملها . ويومئذ كانت البروليتاريا ما زالت طفلا يشكو ولم تصبح بعـــد عملاقا يتحدى .

***

انجلى غبار ثورة ١٧٨٩ ـــ ٩٢ على سقوط مملكة الحق الالهي وظهور جمهورية الحق الاقتصادي في فرنسا ثم في جل أوربا .

اندفعت البورجوازية ، في نشوة انتصارها ، الى استبدال ميلاد المسيح ، باعتباره تاريخ العهد البائد ، بتاريخ ميلادها هي، كطبقة سائدة ـــ اقتصاديا وسياسيا واديولوجيا ، باعتبارها بداية للتاريخ الانساني حقا . وهكذا اصبح عام ١٧٩٢ في التقويـــم

المسيحي هو العام الاول في التقويم البورجوازي للجمهوريـــــة الظافرة .

لكن هذا التحدي غير الحكيم انتهى مع دستور ١٨٠٤ (العام ١٢ حسب التقويم البورجوازي) . ذلك هو كل عمر الثـــــورة البورجوازية لا باعتبارها انهاءاً لصنع التاريـــــخ بارادة السماء وتدشينا لصنع التاريخ بارادة الاقتصاد ، بل باعتبارها بدايـــة للتاريخ الانساني الذي سلمت ضمنيا ، بعودتها لتقويم العهـــد البائد ، بانها ليست هي التي ستدشنه بل ان البروليتاريــــا الثورية هي التي ستضع نهاية لما قبل تاريخ الانسان .

هكذا عادت الى البورجوازية الحكمة ، حكمة فولتير : «يجب ان يقاد الشعب لا ان يُعلّم ، لانه ليس جديرا بذلك . السماء الغبية والارض الغبية ضروريتان للدهماء الذين ليسوا الا بقرا يحتاج الى نير ، الى مهماز والى العلف (...) واذا لم يكن الله موجودا فيجب ان نخلقه» لحفظ النظام !

***

وفعلا خلقت البورجوازية الهها : «الله هو السيطرة الغريبة لنمط الانتاج البورجوازي» (انجلز : انتي دوهرنج) . ذلـك لان العمال في المجتمع البورجوازي خاضعـــــون لسيطرة العلاقات الاقتصادية التي خلقوها بأنفسهم ، خلقوها بوسائل الانتاج التي انتجوها بانفسهم ، كما لو كانوا خاضعين لقـــوة غريبة عنهم ، لقضاء وقدر لا يفهمون له كنها ولا يستطيعون لشروره ردا .

وهكذا بعد ان كانت السلطة المراتبية (سيادة طبقة على أخرى وسيادة المراتب العليا على الدنيا) مبررة ، في التشكيلات السابقة للبورجوازية ، بالاسطورة ثم بالاديان شبه التاريخية ، اصبحت في نظر البورجوازية التي اعلنت ، ولو موقتا موت الله ، مبررة بالطبيعة الانسانية المزعومة التي تجعل من الملكية الخاصة ـ اي

حرمان الشعب ، الذي هو مجموع الجموع التي انتزع منهـــا اعتبارها واغتصبت منها حقوقها ، املاكها ووقتها ، من التمتع بالحياة ، من تقرير مصيره في الحياة اليومية ، من وضع نهاية لفصل الطبقة العاملة عن ملكية وسائل الانتاج ولفصل العامل عن منتوج عمله ــ فطرة انسانية ، جوهرا ابديا ، لا منتوجا اجتماعيا لتطور تاريخي مدرك او قابل للادراك .

***

عدلت البورجوازية عن تقويمها الخاص لانها تعرفت علـــى نفسها ــ كطبقة معادية لمقدمات ثورتها نفسها التي جعلت التحرر الشامل للبروليتاريا ، وبالتالي للانسانية ، ممكنا نظريا باستئصال سعادتهـــا الوهمية وممكنا عمليا بتوفيرها الشروط الماديـــة لتحقيـــق سعادتها الحقيقية ــ فـــي العهود البائـــدة . لقد تعرفت على مصلحتها الحيوية فـي التصالح مـــع الدين . لان نضالها ضده هـــو نضال غير مباشر ضد نفسهـــا : «لان نقد الدين ، هو بالقوة ، نقد هذا النهر من الدموع المكلـــل بالدين» (ماركس) (١) . لان نزع الاشكال الدينية للاستلاب يفترض نزع اشكاله الدنيوية ، لان تحرير الانسان من رق آلهة السماء الوهمية يقتضي تحريره من آلهة الارض الحقيقية : الملكيـــة الخاصة ، العائلة والدولة (٢) . ولانها عرفت اخيرا انها طبقة ،

١ ــ نقد فلسفة الحق عند هيجل : ترجمة م. الخياطـــي . ب. المهلب ع. الاخضر . سيصدر عن دار ابن خلدون قريبا .

٢ ــ يقوم اضطهاد المجتمع الراسمالي على ثلاث دعائـــم : الملكية الخاصة اغتصاب الاقلية لاملاك ، فائض قيمه وفائض وقت الاكثرية المنزوعة الملكية .

كجميع الطبقات الجلادة،«تحتاج الى جلاد وكاهن»(٣) (لينين)، جلاد لقمع الثائرين وكاهن (اقرأ ايضا، صحافي، معلق تلفزيون، مخرج، استاذ، كاتب، نقابي، ستاليني، معلن...) لقمع الوعي النقدي الشعبي بسلاح الادیولوجیا . لان استمرار سيادة البورجوازية، اكثر من سيادة اي طبقة سبقتها ، رهن ، بالتوازي مع تنميتها للانتاجية والاستهلاك ، باستمرار تخليفها للوعي . لانها تدرك ان هذا الوعي ما ان يتحرر من سلبيته حتى يرمي بها ارضا .

***

حدث اليوم عمليا، في المجتمعات الصناعية، ما تمثله ماركس نظريا : ستقضي الصناعة على الدين او ، بالاقل ، تجعله كذبة مكشوفة ، (الادیولوجیا الالمانية) .

لهذا السبب تم في الغرب (الولايات المتحدة، أوروبا + اليابان) او كاد الاستغناء عن مؤسسات اديولوجيا القمع العتيقة البعيدة عن الانتاج (الدين ، الاخلاق وقريبا الحزب) لكن دون أن يتم

= العائلة : معمل الايديولوجيا الاستبدادية، مخفر قمع عفوية وغرائز الاطفال، مكان تشويه نشاطهم الذهني والجنسي ونفي استقلاليتهم، المدرسة الاولى لتعليم الطفل الخنوع امام سلطة الاب وبالتالي القائد، رب العمل ورب الدولة. انها خلية النظام القائم الأولى وضمانة استمرارية مراتبه. ووفرة استهلاك بضائعه المفرغة من القيمة الاستعمالية. الدولة : قمع طبقة لطبقة اخرى . (لينين) .

٣ — في ١٨٥٠ عرض الوزير **Falloux** قانون «الحرية» على البرلمان . وابرز ما في هذا القانون وضع التعليم تحت رقابة الكهنة : «لكي ، كما قال الوزير ، يقوم الكهنة بواجبهم الذي هو وعظ الفقراء بان يخضعوا للاغنياء» . وهذا ما استفز مشاعر فيكتور هيجو فهاجم «البورجوازية الملحدة من اللون الكاثوليكي» . واستنكر عليها ان تدعو «الكنيسة اما لتجعل منها خادمة لها».

«Ne L'appelez Pas Votre mère Pour faire d'elle votre servante

الغاؤها ، لانها ما زالت رديفا فلكلوريا لترسانة القمع الجديدة ، المركزة والخاضعة لاشراف الدولة التي تهيمن بدون منازع على آلية mecanisme الاستهلاك، وسائل الاعلام من التلفزيون الى الاعلان. لانها بدون بسط سيطرتها على هذه الادوات التي تخلق بها الرأي العام السلبي لا يستطيع كذبها المنظم ان يصمد امام انتفاضة الوعي البروليتاري حالما يعي شروط تزييفه .

***

تزامن ظهور الآلهة مع ظهور التبادل غير المتساوي بين الافخاذ والقبائل ومع ظهور نظام المراتب . لجعل اللامساواة بين المتبادلين غير المتكافئين مشروعة ، لخنق صوت الاحتجاج عند ضحايا الغمط وعند ضحايا السلطة المراتبية، لجعل قانون القوة قوة القانون، لكي يصبح الارغام الخارجي واجبا من واجبات الضمير، كان لا بد من مبرر اعلى من الانسان ومتعال عليه يقدم للضحية العزاء ويقدم لجلادها المبرر (١) ، يصبغ على تنظيم العلاقات الاجتماعية الذي صاغه الناس بأنفسهم ، على تقسيم العمل الى ذهني ويدوي الذي اقتضاه نظام المراتب ، هيبة سلطان القداسة الاسطورية في المجتمعات الرعوية ، والقداسة الدينية في المجتمعات الزراعية .

لكن تقسيم العمل لم يكن وليد صدفة بل كان وليد وضع محدد من تطور المجتمع البدائي الذي اندفع ، ولو بثمن مظلمة من حجم مظلمة تقسيم العمل ، لتنظيم بقائه على قيد الحياة معفيا فصيلا من اعضائه من الاضطلاع بمهام الانتاج المباشر لاشياء الحياة الضرورية (زراعة الارض) ، ومخصصا حصة من مواده لصيانة

---

١ ـ الضحايا كانوا بحاجة للذين كوعد بالسعادة في الدار الآخرة بينما كان الحاكمون المتمتعون فعلا بالسعادة في شروط الامكانيات المتاحة في غير حاجة الى الدين الا كخدعة وضابط .

مؤسسات اديولوجية صرف .

لم تكن هذه المؤسسات الدينية ، بالنسبة للنخبة السائدة ، بدون مردود : فقد كانت تعوض عدم كفاية القوى المنتجة بفضل تسويغها للضرورات التي كانت تنظم العلاقات الاجتماعية المتناسبة مع درجة تطور هذه القوى ، كما كانت تقنن استخدام الزمان والمكان مقيمة الفواصل والحدود بين المقدس والمدنّس le Sacret et le Profane وكانت بوجودها ذاته تحقق عددا من الاكراهات : الدولة ، المعابد ، القصور ... وباختصار استطاعت المؤسسات الاديولوجية الصرفة ، بتوحيدها لمؤسسات الدولة البدائية مع مؤسسات الله ، ان تحصنها من معارضة الجماهير المظلومة التي كان عليها ان تخشى ظل الله على الارض (الدولة) بقدر ما تخشى الله نفسه . «لقد لعب الدين والسياسة نفس الدور ؛ لقد وعظ الدين (الناس) بما كان الاستبداد يريده : احتقار النوع الانساني ، عجزه عن تحقيق الخير بأي درجة كانت، وعجزه عن ان يكون شيئا ما بنفسه» (هيجل) . احتقار الجسد كمكان للخطيئة، واحتقار الحياة كدار فانية وتحويل جريمة التضحية بالنفس في سبيل الآخر ، حاكما كان او إلهاً ، الى واجب مقدس .

اين وصلت المسألة الدينية في الغرب ؟

شيئا فشيئا ، وبشكل حاسم ، في النصف الثاني من هذا القرن ، استبدلت المؤسسات الدينية التي صدات سيوفها في الغرب بمؤسسات المشهد le Spectacle : سيطرة المظهر على الجوهر . «يقدم المشهد نفسه كايجابية هائلة لا مرية فيها ولا تنال . فهو لا يقول اكثر من «ان ما تشاهده خير ، والخير تشاهده» . الموقف الذي يفرضه المشهد هو مبدئيا القبول السلبي الذي قد حصل عليه عمليا بطريقة ظهوره التي لم يواجهها

اعتراض وباحتكاره للمظهر» (جي دوبور) (١) .
حدث هذا التحول لان المؤسسات القديمة استنفدت اغراضها بامتلاك المجتمع البورجوازي المعاصر القدرة التقنية على انتاج الاكراه والضرورات والحدود القديمة تحت اشكال جديدة . لم تعد المراتبية الغربية اليوم بحاجة الى المعبد والكاهن لشل بذور التمرد في وعي طبقة العبيد الجدد : البروليتاريين المحرومين من استخدام وقتهم للاستمتاع بحياتهم . لقد استبدلت المعبد والكاهن بالمعمار l'urbanisme : التنظيم الالزامي للمكان والعزلة ، بالتلفزيون وبالاستهلاك .

السعادة لم تعد وعدا اسطوريا كما كانت في الدين ، بل اصبحت الزاما اقتصاديا : ايها العامل كلما ازدادت انتاجيتك ، وكلما ازداد استهلاكك ازدادت سعادتك. هذا هو ما يميز الاستهلاك المشهدي ، وريث الدين، عن الدين: اعطاء الثواب، عن الحرمان الفعلي ، في العاجلة لا في الآجلة . الجنة لم تعد في السماء بل في المخازن .. وويل لاصحاب الجيوب الفارغة ! تماما كما في الدين ، لا فرق بين عربي واعجمي الا بالتقوى ، كذلك في حضارة الاستهلاك ، لا فرق بين اسود وابيض ، بين اهلي وغريب الا بكمية البضائع المستهلكة .

الاقتصاد الرأسمالي العقلاني في الظاهر تحكمه في الواقع لاعقلانية جوهرية : لانه ، لكي يتفادى الازمة : اختلال التوازن بين القدرة الشرائية وكمية البضائع المعروضة في السوق ، بين كثرة الانتاج وقلة الاستهلاك، استنجد بالتبذير وبديكتاتورية الاستهلاك.

هكذا بمقدار ما انتج اقتصاد الاستهلاك من تعددية الاشياء المفرغة من القيمة الاستعمالية بمقدار ما اختزل الانسان المتعدد

---

١ — Guy Debord: La Société Du Spectacle. Ed Buchet Castel وهو كتاب ثوري ياتي ، من حيث الاهمية ، الثاني بعد رأس المال .

الابعاد الى بعدين اثنين : منتج ـ مستهلك . منتج لاي شـــيء (قنابل نابالم ، فسفور، ميكروبات الحروب البيكتيريولوجية...) ومستهلك لاي شيء (من الاسبرو المدمر للامعاء الى المعلبـــات المغشوشة بالزئبق السام ...) (١) .

ديكتاتورية الاستهلاك (ديكتاتورية البورجوازية المعاصرة) هي استبدادية توتاليتارية من طراز جديد. لا تفرض نفسها الآن (من يدري غداً ؟) بالعنف البوليسي على رعاياها (لكن بالمقابل تفرض نفسها في المستعمرات ، في فيتنام بفاشية جديرة بآكلي لحوم البشر) بقدر ما تتسلل بعنفها غير المرئي والمدمر ـ تماما كما فعل الدين ـ الى سريرتهم ، كمستهلكين سلبيين ، عبر عقلانيـــة تيكنوقراطية تجرد الانسان ـ الذات من نقديته وانسانيته معـا وجميعا ، مختزلة اياه الى **بضاعة** تنتج البضاعة وتستهلـــك البضاعة والصور .

ليست الحضارة الاستهلاكية المعاصرة الا مراكمة منوعـــة للبضائع : راديوات ، تلفزيونات ، برادات ، سيارات الخ . لكن المستهلك السلبي ، الذي يفعل الحب ولا ينفعل ، فهو ، في واقع حاله ، كلما ازداد ثراؤه الكمي بامتلاك الاشياء ازداد فقره النوعي من امتلاك الضجر له وابتعاد حلم السعادة الحقيقية المعاشة التي تجعل منه انسانا كاملا لا انسانا مستلبا ، مشطورا على ذاتـــه ومعزولا عن الآخرين الذين لم تعد علاقاته بهـــم الا علاقات بين اشياء .

العامل في الغرب اليوم وهو في شقته المكيفة ، التي عزلته عن الناس لترغمه بدون عصا على الاستماع لرسالة النبي الجديد

١ ـ مؤخرا منعت الحكومة اللبنانية استيراد المعلبات الامريكية لانها مغشوشة بالزئبق . لكن يبدو ، لمن يغشى الاسواق ، ان القرار بقي حبرا على ورق . تحيا حرية التجارة !

الذي يعلم الناس الاكتفاء بمشاهدة تمثيل الواقع بدلا من عيش الواقع : التلفزيون الذي جعل الاب لا ضرورة له والروح والفكر اشياء تخطاها الزمن ، ليس اقل شقاء من جده الذي كان ينام ، في القرن ١٩ ع ، مع الخنازير في بيوت افاض اميل زولا في وصفها ونتعرف عليها في مخيمات اللاجئين واحياء العمال العرب اليوم !

تماما كما اعطى الانبياء القدامى شيك بدون رصيد لتزييف مطلب الانسان في عيش السعادة ، خلقت الطبقة السائدة في الغرب حاجات مزيفة لدى الناس وقدمت لهم بضائع بدون قيمة استعمالية لارضائها بشكل لا يقل زيفا . كما خفض الدين الانسانية البريئة الى اشلاء من العبيد الخطاة الراضين بعبوديتهم باعتبارها قصاصا مستحقا عن الخطيئة الاصلية ، حوّل المشهد الناس الى اشلاء متساوية في التفاهة ، في الاقبال على الاستهلاك وفي معايشة الضجر (١) . واذا كان لابناء العالم القادم ان يتذكروا البورجوازية بشيء ، فبكونها نقلت رعاياها من عصور الموت جوعا الى عصر الموت ضجرا .

كما قضى الدين على التعايش في انسجام بين الانسان والعالم وخلق لفصلهما سلسلة من الشاشات والوسائط ، كذلك قضت الحضارة البورجوازية على التواصل Communication الانساني بما خلقته من شاشات ، وسائط ، وبضائع . وقضت على مكان هذا التواصل بالذات : على الشارع الذي كف عن كونه مكان لقاء وحوار بين ساكنيه ليصبح مكان صف السيارات وموضوعا لرقابة البوليس . وقضت اخيرا على الطبيعي في الطبيعة والانساني في الانسان .

في مرحلة اقتصاد الانتاج استبدلت البورجوازية شعار

---

١ ـ اقرا : السأم . مورافيا دار الآداب .

النبلاء : الوقت من اجل اللذة بشعارها الكئيب : الوقت من اجل الانتاج . ثم في مرحلة اقتصاد الاستهلاك بـ : الوقت من اجل الاستهلاك (٢) .

لذا نرى بدايات المشروع الثوري الذي بدأ يعبر عن نفسه في الاضرابات العمالية النوعية ، الجديدة شكلا ومضمونا وفي انتفاضة ايار ٦٨ ، يرفع شعار العودة الى الوقت من اجل اللذة بدون عودة النبلاء . وهي عودة اصبحت مستحيلة تاريخيا .

ليس في المشروع الثوري الغربي ، كما سيتراءى لمنظري التخلف المتخلفين اي طوباوية طفولية . فالتيكنولوجيا وبالتحديد الاتمتة automation (الآلية ـ الذاتية) قضت نظريا على عصر التعب ودشنت عصر اللعب . الآلة والادمغة الالكترونية تسمح الآن بان يصبح الوقت المرصود للانتاج ـ انتاج القيم الاستعمالية فقط ـ هامشيا . والوقت الموظف في الاستمتاع الحر بالحياة الحرة اساسيا . لكن ذلك لم يقع ولن يقع حتى يطاح بسلطة البورجوازية .

***

في المجتمع الغربي انتقل الثوريون من نقد المؤسسات اللاهوتية الى نقد مؤسسات الثقافة الجماهيرية المركزة . ولن تطيح ثورة المجالس الشيوعية القادمة فيه بالدين ، فهذه مهمة قد انجزت ، بل بالمشهد .

٢ ـ يحق للبوليس في مدن الولايات المتحدة ان يعتقل اي متجول بدون «هدف» الا اذا اثبت ان هدفه هو مشاهدة البضائع المعروضة بنية استهلاكها...

في العالم البيروقراطي ، الماركسي اللينيني ، استبدلت عصمة الكنيسة بعصمة الحزب البيروقراطي الواحد ، استبدلت المثالية الدينية بالاديولوجيا المادية البيروقراطية واستبدل المسيح بستالين (ستالين هنا هو رمز للامين العام للجنة المركزية في الاحزاب البيروقراطية) فهو «اعظم الفلاسفة في كل العصور» (اراجون Aragon وهو «صاحب القدح المعلّى في الفن والادب» (روجي جارودي) وهو «الاب العبقري لجميع الشعوب» (لومانيتي ، جريدة ح.ش. الفرنسي) على الارض كما كان يسوع اباها الذي في السماء ...

سر هذه الظاهرة يكمن في واقع ان الطبقة البيروقراطية عندما تكون ما زالت لم تنجز مهمة التراكم البدائي لراس المال ، عندما تكون ما زالت في مرحلة التكوّن التجريبي واكتمال الملامح، تكون بحاجة الى اديولوجيا كلية الاستبداد ومعصومة متجسدة في زعيم كلي الاستبداد ومعصوم هو الآخر (ستالين ، ماو) لتوطيد سيطرتها على الفلاحين ، على العمال ، ثم على الجميع. ولقمع الصراعات الزمرية في صلب الطبقة ذاتها . في هذه المرحلة لا تستطيع البيروقراطية فرض سلطتها المطلقة الا بالارهاب المطلق داخل وخارج صفوفها ، بالمركزية والانضباط الحديديين وبدقة طقوسية في عبادة التسلسل المراتبي ابتداء من الاعلام الى المرتب. حسب المرء الرجوع الى تاريخ الكنيسة ليجد تشابها مذهلا بين مراتبية الكنيسة ومراتبية الاحزاب البيروقراطية .

لكن ما ان ينجز التراكم بوسائل سماها بوخارين همجية ، وما ان تكتمل ملامح الطبقة البيروقراطية وتتبلور مصالحها بما فيه الكفاية حتى تصبح قيادة اركانها الى درجة تزيد او تنقص ، حسب الحالات العينية ، محكومة بالمصالح الموضوعية للطبقة ككل لا بانفعالات او اجتهادات الزعيم البونابارتي . وهكذا تقل حاجتها

لوضع شاشة مقدسة (اديولوجيا ، زعيم) بينها وبين رعاياها . وتتخلى بالتالي عن عصمة الاديولوجيا (التحريفية الخروتشوفية) وعن عديلها وضامنها : عصمة الزعيم الذي يتحول من اب عبقري لجميع الشعوب الى «شقي ، طاغية ومجرم» على حد وصف تقرير المؤتمر العشرين لستالين .

في هذه المرحلة تنتقل الطبقة المتشكلة من عبادة القائد الى عبادة القيادة الجماعية ، من الحاجة الى البطل البيروقراطي الى الحاجة الى الكادر التكنوقراطي (من لين بياو الى شوان لاي) ، من عبادة الدوجم dogme الى عبادة الذرائعية: الفعالية في زيادة الانتاج والانتاجية. ويصبح قمعها لمعارضيها خاصة داخل صفوفها اضيق نطاقا ، اقل دموية (1) واكثر تخفيا ، لانها باتت اكثر ثقة بنفسها وبرسوخ سلطتها .

يتزامن هذا الانتقال مع انتقال آخر : من التشويش على الاوضاع الراهنة العالمية والتحريض اللفظي ضدها الى الواقعية في السياسة الخارجية التي تجد تعبيرها في التعايش السلمي بشتى مراحله : الانفراج فالتفاوض فالتعاون . ذلك ما حصل في روسيا ودول اوربا الشرقية الدائرة في فلكها ، وما بدأ يحصل في صين ماو وهو على قيد الحياة .

***

لكن مهما مطت البيروقراطية ليبراليتها فانها لن تتخطى حدين

1 ـ صرح الكاتب الروسي سولجنستين لمراسل صحيفة اجنبية : «الان في الاتحاد السوفياتي لم يعد نقد الواقعية الاشتراكية او طبع كتاب سرا يكلف المرء حياته . انه لا يكلفه اكثر من السجن والحرمان من المرتب » . فيا له من تقدم !!

محرمين : الاعتراف بهويتها اي بانفصالها الفعلي عن البروليتاريا وانكار احتكار الحزب ـ حتى مع الاقرار الممكن بامكانية الخطأ الذي لا يجوز ان يصححه الا هو نفسه وفي الوقت الذي يراه مناسبا ـ للمعرفة .

قوة البيروقراطية تكمن في انكارها لوجودها ، كمحاولة يائسة لارتداء طاقية الاخفاء امام الوعي البروليتاري ـ وكل الذين يتجاسرون على تذكيرها بوجودها المنفصل عن البروليتاريا اي بضرورة انهاء وجودها ، ليسوا بنظرها الا هراطقة تلاحقهم بتهم قليلة الاختلاف عن تلك التي لاحقت بها الكنيسة هراطقتها في العصور الوسطى .

طغيان الحزب البيروقراطي يتجلى في قراره بان المعرفة احتكار له والتاريخ من صنعه . البروليتاريا لم تعد ذاتا صانعة للتاريخ كما هي في الواقع وكما كانت عند ماركس بل اصبحت موضوعا منفعلا لمعرفة الحزب وقراراته التاريخية . تماما كما كانت كنيسة محاكم التفتيش تدعي بان معرفة الحقيقة وقف عليها وان رعاياها موضوع لمعرفتها وعناية محاكمها الدموية .

لنأخذ بالصدفة مثلا قريبا منا مكانا وزمانا : الطلبة الذين يحرضون بالتسيير الذاتي الشامل في يوغسلافيا ، التي تدين رسميا بالتسيير الذاتي ، طبعا التسيير الذاتي كما يفسره الحزب وتطبقه البيروقراطية : تسيير العمال لاستلابهم الذاتي ، يلاحقون لانهم: «اعداء الشعب والدولة» مثلما حصل لكلوجيك، امسيروفيك ونيكوكيك .

في رسالة نشرتها مؤخرا (المانيفستو) الايطالية كتبها الطلاب الثلاث وهربوها من سجنهم ، نجد كل ما يعيد للذاكرة ذكريات كنيسة التفتيش : «اننا ملاحقون من اجل **الهرطقة** لاننا اعلنا بان العلاقات الاشتراكية الانسانية حقا لا سبيل الى اقامتها في اطار اقتصاد بضاعي وتنافس مجنون ؛ وبان الديموقراطية الاشتراكية والتسيير الذاتي لا يمكن ان يوجدا ما دام الحزب يعزز باستمرار

الدور السياسي والاقتصادي للدولة . وبان احدا لا يستطيع ان يدعي تحقق التسيير الذاتي العمالي وسلطة الطبقة العاملة بينما لا وجود لعمال في حيث تتخذ القرارات الاساسية ... وبينما يتناقص عدد وتأثير العمال في الحزب الواحد القابض على السلطة (...) . اننا متهمون **بالهرطقة** لاننا **فكرنا** بان من الممكن بل من الضروري التحقيق الفوري للتسيير الذاتي العمالي الشامل في جميع مستويات المجتمع ـ من مستوى العمل الى مستوى الاتحادية اليوغسلافية، وذلك بتمكين الجماهير من تسيير المجتمع وبالقضاء على دور «السياسيين المحترفين» .

في نفس يوغسلافيا حيث البروليتاريا سائدة دعائيا ، ادين طالب بالسجن ٢٠ شهرا لانه اضرب عن الطعام تضامنا مع عمال البوسنة الذين احتلوا المنجم واعتقلوا مديره .

وفي هذا الشهر ، دائما في يوغسلافيا ، صودرت مجلة «براكسيس Praxis » لانها قالت بان : «الماركسية اصبحت في يوغسلافيا قطعة اثرية في متحف العاديات ، والماركسيون فيها ملاحقون » .

اسبانيا توركمادا وسيسنروس (١) ما زالت حاضرة في كل مكان تقريبا من المعسكر البيروقراطي الذي جعل الاجهزة كبيرة والناس صغارا ، اختزل ، الفلاحين ، العمال والشباب الى عبيد ونصب دولة الحزب كنيسة مقدسة لا يرقى اليها الهمس .

***

هنا مهمة الثوريين والثورة الانتقال من نقد الدين الى نقد

---

١ ـ Torquemada (١٤٢٠ ـ ١٤٩٨) و Cisneros (١٤٣٦ ـ ١٥١٧) جزاران شهيران في حوليات محاكم التفتيش في اسبانيا .

الاديولوجيا البيروقراطية ومن نقد اللاهوت الى نقد الاستبداد البيروقراطي الشامل . هنا نقد الجنة الدينية يتحول الى نقد جحيم البيروقراطية .

***

اذا كان نقد الدين في العالم المتقدم ، اقتصاديا مهمة قد انهتها من حيث الاساس البورجوازية الثورية في الغرب والبيروقراطية الثورية في الشرق ، فان نقد الدين في المجتمع العربي مهمة راديكالية لم تبدأ بعد لا من وجهة نظر ماركس ولا حتى من وجهة نظر ديدرو (٢) . لكن اذا شرعنا اليوم في تحقيق هذا النقد الذي هو «الشرط الاولي لكل نقد» (ماركس) فاننا سنجد انفسنا بالكاد في النصف الثاني من القرن ١٨ع وما ابعدنا عن ١٩٧٢ !

علينا اذن ، لكي نكون معاصرين لعصرنا ، ان نمارس في نفس واحد نقد السماء الدينية ونقد الارض الرأسمالية، نقد الاستسلام للتراث ونقد الاستسلام للامبريالية ، نقد دور الافتاء ونقد دور الصحافة ، نقد المنابر ونقد الاذاعات .

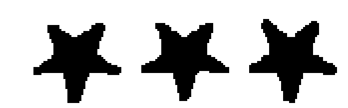
---

٢ ـ معظم ما صدر حتى الان عندنا تحت عنوان نقد الدين ، جدير بان يصنف دون حرج تحت عنوان دعم الدين . باستثناء مقال عاطف احمد «ملاحظات حول الفهم العصري للقرآن» الذي مس بحذر بعض الجوانب . الا ان المقال ينقصه اولا روح التعميم . وينقصه ثانيا ، وبكل وضوح ، الانتقال من نقد السماء الى نقد الارض ، من نقد الدين الى نقد الحق ، من نقد اللاهوت الى نقد السياسة ومن نقد الاخوان المسلمين الى نقد الاتحاد الاشتراكي . (مجلة مواقف ، تموز ـ آب ١٩٧١) .

موقف الستالينية العربية من الدين ؟

لان على الثورة العربية ان تحقق مهام جميع الثورات السابقة المجهضة والثورة القادمة الظافرة : فأمام البروليتاريا العربية ان تحقق سلطتها الديموقراطية: اتحاد المجالس الشيوعية، ان تحقق تحرير الوطن العربي من الاستعمار الاستيطاني ومن الاستعمار الجديد وتحرير الحياة اليومية العربية من استعمار التقاليد الميتة، من بؤسها المزدوج : الكمي والنوعي . ان عليها ان تنقد التخلف الاقتصادي وتنقد عبادة الاقتصاد .

البروليتاريا في العالم العربي هي كطبقة ، قائدة لمجموع الطبقات الكادحة ، القادرة على انجاز هذا النقد . لماذا ؟ لان بورجوازية ديناميكية من الطراز الغربي لم يعد من الوارد ، لاسباب يعرفها الجميع وكل احد ، ان تظهر عندنا . ولان بيروقراطية ثورية من الطراز اللينيني وحتى من الطراز الماوي ، هي الاخرى، بات من الصعب نجاحها عندنا . لان الاحزاب الماركسية اللينينية التي قادت مسيرة الثورات البيروقراطية في آسيا او في شرقي أوربا كانت ، على صعيد نقد السماء الدينية والارض الرأسمالية المتخلفة او شبه الاقطاعية، اكثر راديكالية من البورجوازية الاوربية الصاعدة . اما في العالم العربي فهذه الاحزاب تصالح الدين تماما اكثر مما صالحته البورجوازية في شتاء عمرها . وبذلك – وليس موقفها من الدين الا عينة نموذجية لباقي مواقفها – تخلت عن كل ما هو راديكالي في الايديولوجيا البيروقراطية الثورية . وانغمست الى المرفقين والى ما فوق المرفقين ، في تحريف كل ما هو ثوري في الايديولوجيا اللينينية . اما النظرية الماركسية فليس من اللائق حتى الاشارة اليها بهذا الصدد .



كتب ماركس عن الغرب الذي لم يلد فيه الدين : «نقد الدين هو الشرط الاولي لكل نقد» .

سيرد عليّ ، في جوقة ، الذين حفظوا جارودي عن ظهر قلب: لكن ماركس تم تجاوز اخطاء شبابه هذه منذ زمان بعيد... وقّت ساعتك على لينين !

... وكتب لينين : « من واجب الاشتراكيين المطلق ان يتدخلوا (في البرلمان ١٩٠٩) لاعلان وجهة نظرهم من الدين (...) الاساس الفلسفي للماركسية ، كما اعلنه ماركس وانجلز مرارا ، هو المادية الجدلية ، التي تبنت تماما التقاليد التاريخية لمادية القرن ١٨ع في فرنسا ومادية فيورباخ في المانيا . وهي مادية بلا جدال ملحدة ومناهضة باصرار لجميع الاديان . لنتذكر ان كتاب انجلز (انتي ـ دوهرنج) الذي قرأ ماركس مخطوطته ، اتهم المادي الملحد ، دوهرنج ، بعدم التماسك في ماديته وبمجاملته للدين والفلسفة الدينية . لنتذكر ان انجلز ، في مقالته عن فيورباخ ، يأخذ على هذا الاخير بانه حارب الدين لا بهدف تقويضه بل بهدف اصلاحه ، بهدف اختراع دين جديد (...) ان الدين هو افيون الشعوب. هذا القول المأثور لماركس هو حجر الزاوية لمجمل وجهة النظر الماركسية حول الدين . لقد نظرت الماركسية دائما الى الاديان والكنائس وجميع المنظمات الدينية ، كأدوات بيد الرجعية البورجوازية للدفاع عن الاستغلال ولتسميم الطبقة العاملة »

وكتب : «لقد انتج (تاكتيك الاشتراكية الديموقراطية ازاء الدين) تشويها جديدا للماركسية في الاتجاه المعاكس ، في اتجاه الانتهازية . هناك من اخذ يفسر ان الدين ، بالنسبة الينا كحزب، اصبح قضية خاصة . ان انجلز (...) قد اعتبر من الضروري معارضة هذه النظرية بحزم (...) قائلا ان الاشتراكية الديموقراطية تعتبر الدين قضية خاصة بالنسبة للدولة ، لا

بالنسبة للاشتراكية الديموقراطية نفسها : ولا بالنسبة للماركسية ولا بالنسبة للحزب العمالي (...) الماركسية هي المادية. وبصفتها تلك ، فهي معادية للدين بقوة لا رحمة فيها . تماما مثلما كانت مادية القرن ١٨ع او مادية فيورباخ . هذه مسألة لا يرقى اليها الشك » .

وكتب ايضا وايضا : «على المجلة «المادية المناضلة» ان تقود دعاية الحادية لا تكل ونضالا الحاديا لا يمل ، يجب ان نتقصى بعناية الادب الذي يتناول هذا الموضوع في جميع اللغات وان نترجمه (...) ان انجلز ، وذلك منذ عهد بعيد ، نصح قادة البروليتاريا المعاصرين بان يترجموا وينشروا بين الجماهير ، بين الشعب ادب نهاية القرن ١٨ع الالحادي المناضل . انها لفضيحة لنا **(ولنا نحن ايضا ع٠أ٠)** اننا لم نقم بذلك حتى الآن (...) ينبغي ان نزود الجماهير بالمواد الاكثر تنوعا للدعاية الالحادية (...) ينبغي ان نوقظها من سباتها الديني ، وان نهزها حتى الاعماق وبكل الوسائل» .

***

هذا باقتضاب موقف ماركس ، انجلز ، لينين من ضرورة نقد الدين في اوربا العقلانية، الصناعية ووريثة الروح البروميثيوسية. فما هو موقف القيادات الستالينية العربية من الدين في هذا الشرق المكبل بالطقوس والذي اختلطت ارضه بسمائه وولدت وترعرعت فيه جميع الاساطير من اكثرها بساطة الى اكثرها تعقيدا ؟ هل اضطلعت بمهمة «ايقاظ الجماهير من سباتها الديني» واحيانا ما قبل الديني ام ، بالعكس ، قدمت لها مزيدا من الخدر لكي تغط طويلا وعميقا في هذا السبات ؟

دونكم هذه العينة : «كان الدين عاملا لا جدال في اثره اسعف

تكوين الشخصية القومية (...) فكان في ثورة عرابي المصرية وفي ثورة المهدي السودانية نفح ديني غزير (...) ولا يزال في الثورة الفلسطينية اليوم أناس تحدوهم الرغبة في **الجهاد** دونما عصبية. فالشعور الديني الضارب في حنايا الجماهير يستطيع ان يكون وقودا للازمة الثورية حين اشتعالها» (منظمة العمل الشيوعي في لبنان) (١) .

وفي غير مناسبة كتبت واعلنت قيادات الاحزاب الماركسية ــ اللينينية في المغرب ، الجزائر ، السودان ولبنان ، انها تتبنى التراث الاسلامي . وصرحت بانها تضع المادية الجدلية على الرف، في انتظار حكم الاجيال القادمة . اما اليوم فهي قانعة بالمادية التاريخية ، كقاسم مشترك مع ميثاق عبد الناصر .

هكذا فتتت الماركسية ، النظرية الاكثر شمولا وتماسكا ، الى ركام من قطع الغيار الرخيص المعروض للبيع بالمفرق في سوق العرض والطلب لاول طالب سواء كان عبد الناصر او الحسن الثاني .

***

يبرر الستالينيون العرب ، على اختلاف منوعاتهم ومصادر الهامهم ورزقهم ، مواقفهم المتنافسة في تقريظ الاسلام بهذا الادعاء : الاسلام ما زال سلاحا للتحرير عكسا للمسيحية (وبالاحرى اليهودية) التي كانت وما زالت سلاحا للاسترقاق

---

١ ــ جريدة الحرية ، ٢٢ــ١١ــ١٩٧١ .

الروحي للجماهير (٢) .

هذه انتهازية صرف وادعاء لا يصمد لحظة امام المادية التاريخية النقدية التي تدرس الظواهر من خلال مكوناتها التاريخية لا من خلال اوهام الناس عنها . اولا الاسلام هو الديانة اليهودية الثانية : «ان هذا لفي الصحف الاولى صحف ابراهيم وموسى». (القرآن) . وثانيا لقد ظلت المسيحية دين الشعب ، سلواه في المحن لكن ايضا سلاحه للتشهير باحبار اليهود واغنياء الامبراطورية الرومانية طوال ثلاثة قرون قبل ان تصبح دين الامبراطورية الرومانية على عهد قسطنطين . وبذلك فقدت طابعها الشعبي الثوري . اما الاسلام فما كاد يظهر كدين يخوض صراعا ضد جزء من الارستوقراطية المكية حتى تحول بمجرد هجرة محمد الى المدينة ، الى دين ودولة (٣) ، اصبحت بعد اقل من ثلاثين عاما تحكم بالسوط والسيف : نسبها السيف وحسبها الذهب (٤) . وتضطهد لا جماهير اهل الذمة فقط ولا جماهير المؤمنين وحسب بل والفقراء من اصحاب

٢ ـ نسيب نمر : فلسفة حركة التحرر الوطني . حيث رد على ما اسماه: لا ادرية ومثالية وسطحية صادق العظم بمادية توتولوجية تعلن الحادها باحتشام ثم تسارع لطلب الغفران من الاسلام في الدول العربية «التقدمية» التي تعاملت معه بسخاء في وقت ما !

٣ ـ انظر : الاسلام واصول الحكم . تأليف الشيخ علي عبد الرازق، المنشور كاملا بالطليعة القاهرية . تشرين الاول ـ الثاني ١٩٧١ . وهو كتاب جريء. نسف الخلافة في اقل من ٧ صفحات ا رغم هشاشته في اثبات ان الاسلام

٤ ـ اشارة لرواية ابن خلكان : من ان احدهم طلب من المعز لدين الله ان ينتسب . أستجاب وعقد مجلسا من النسابين والاشراف . انتظر المجلس الوقور من المعز ان يقرأ عليه بتواضع شجرة نسبه المطعون فيه . لكن المعز استل سيفه قائلا : هذا نسبي . ونثر الذهب عليهم قائلا : وهذا حسبي .

محمد انفسهم . مصداق ذلك اضطهاد عثمان لعمار بن ياسر وابي ذر الغفاري الخ .

من الطبيعي ان مهمتنا ليست تفضيل دين على آخر فذلك شأن الشيوخ والكهنة الذين لم يكتشفوا بعد انهم في خندق واحد. وانما مهمتنا الجوهرية هي استنطاق التاريخ وتوجيه سلاح النقد الى المبدأ الديني نفسه ، مهمتنا هي مساعدة الجماهير على الاستيقاظ من سباتها الديني والخرافي ، ومهمتنا هي ان نشارك في انجاز مهام حقبتنا التي تتمخض عن انفجار العالم القديم وميلاد عالم جديد .

كما نلمح ارهاص هذه الولادة في تمردات الشباب في العالم كله شرقيه وغربيه ، متقدمه ومتخلفه ، في الصراع والمطالب البروليتارية النوعية الجديدة ، نجد تعبيره ايضا في قيام قيامة جميع فضلات les sous produits العالم القديم من ديكتاتورية السيبرنتيقا ، كتعبير عن فاشية الاقلية التيقنوقراطية التي تذرعت بالعلم للسيطرة البيروقراطية على حياة الجماهير ، الى المؤسسات الاديولوجية البالية ، كتعبير عن اناكرونيزم (١) الدين والاديولوجيا عموما في عصر يجب ان تبدو فيه الاساطير الدينية على حقيقتها .

ما زالت السلطة العربية تحرق البخور لمزابل تراثنا

انعكاس هذه الازمة الشاملة نكاد نراه ارقا في عيون جميع الحكام الذين يقض مضاجعهم شبح الشيوعية وقد عاد من جديد ليرود لا في ربوع اوربا الشرقية والغربية وحسب بل في ربوع العالم كله .

---

١ — شيء او ظاهرة اكل عليهما الدهر وشرب .

لا ضرورة للرجوع المطوّل لاستقصاء امثلـــة هذا الارق . حسبنا هنا وصف المطران المحافظ مخائيل ضوميط لقلق الطبقات السائدة من عواقب هذه الازمة الطاحنة التي اخذت تنخر اسس مؤسساتها وتبريراتها الدينية والدنيوية :

«القيامة قائمة في العالم اليوم ، من كل صوب : القيامة قائمة على كل قديم ، في الشرائع والنظم ، في الاخلاق والعادات ، في الآداب والفنون (...) والقيامة قائمة كذلك في الكنيسة على كل قديم : في العقيدة : التعاليـــم الكنسية غدت في نظر الكثيرين لغزا مغلقا ، كلاما فارغا لا طائل تحته (...) وفي الأخلاق : الشرائع الكنسية غدت في نظر الكثيرين نيرا ثقيلا .. وبعضهم خلعه واحل محله اندفاعا عفويا الى انماء الذات ... وفي العبادة ايضا : الطقوس الكنسية غدت في نظر الكثيرين تمثيلا اعجم اجوف ، لا دلالة فيه ولا وقع له... انه لا يطاق (...) واخيرا في النظام الذي لم يعد يرى فيه بعضهم غير بقية باقية من عهد بائد ينبغي ان يندثر (...) هذه بعض مظاهر الازمة التي يعانيها العالم وتعانيها الكنيسة ، وهي على ما يبدو تتعدى النزاع الذي لم يخلو منه عصر من العصور ، بين حديث وقديم ، بين جديد وتقليد ، ان النزاعات التي شهدتها العصور الخالية كثيرا ما كانت تدور على أسلوب التعبير ، وأن تعدته فعلى صيغة التفكير . اما الركائز والاسس فقلما كانت موضوع جدل او شك . اما اليوم فاننا نشهد نزاعا أعنف واشـــــد ، تناول اول ما تناول ، الاساليب والصيغ ، ثم لم يلبث ان تجاوزها الى الركائز والاسس (...) اما الدين فقد اصبح اثرا باليا وممارسات شكلية لا يقبل عليها غير قصار الايدي وقصـــار العقول» (1) .

الانسانية المعاصرة ، كما لاحظ المطران بحزن ، اخذت تبحث عن «انجيل خلاصها» في مناهل غير انجيل الخلاص ، في ثورة تطيح بجميع الاستلابات القديمة والحديثة ، فـي إطار سلطـــة

١ ـ النهار ٣٠ـ٦ـ١٩٧٢ .

شعبية حقا قائمة على الانتخاب المباشر من القاعـــدة ، الانتداب الموقت والجمع الضروري بين سلطتي التنفيذ والتشريع تجد فيها مشاكل الثورة البروليتارية حلها الحقيقي، او على الاقل إطارا لمثل هذا الحل: سلطة يسترد فيها وبها الانسان، فردا وجمعا، سلطته المهدورة ، ابداعه المصادر ووجوده الضائع .

***

المسيحية التي تعاني من هذه الازمة عرفت عبر تاريخها ومرارا الاصلاح والتطهير من الطقوس الشرقية . اولها اوربة européanisation المسيحية على يد الفيلسوف سيناك Sènèque الرومانـــــي ومدرسة فيلون الاسكندراني الرواقية ، حيث تمت اقلمة المسيحية البدائية مع الفلسفة الرواقية والفلسفة الرومانية اليونانيـــــة المبتذلة ، التي على عكس فلسفة اللذة الابيقوريـــة التي تطورت باتجاه الالحاد ، انتهت هي الى الايمان بإله واحد وبخلود الروح. وهكذا فالمسيحية الغربية ، والكلمة لبورنو باور Burno Bauer لم تولد في الجليل والقدس بل في الاسكندرية وروما . حدث هذا قبل أن تصبح ، بل لكي تصبح ، المسيحية ديانة الدولـــة الرومانية التي توافد عليها الهنس والجرمان للاقتيات بجثتها .

اما التطهير الاخير من بقايا الطقوس الشرقية فقد حدث في المجمع الفاتيكاني الثاني (١٩٦٥) . اعلن المجمع اولا ان الكنيسة ، التي كانت على الدوام ضامنة النظام الاجتماعي السائد ، لم تعد مرتبطة بأي نظام اجتماعي قائم لنمط الانتاج . واعطى المجمع الضوء الاخضر لمفسري الكتاب ليقولوا بان «ايام الخليقة الستة» و«تفاحة حواء» و«توقف الشمس» بأمر يشوع و«الايام الثلاثة التي قضاها يونان (يونس) في بطن الحوت» انما هي اساطير تصورها كتّاب الاناجيل او تلقفوها من أفواه الرواة الشعبيين في ايامهم . وليست مـــن الحقيقة التاريخية في شيء . على ان بعض الشراح لم يكتف بهذا

الحد من التطهير بل دفعه الى ملء مداه : تطهير الكتاب من الخوارق الشرقية والعودة به الى العقلانية الغربية المعاصرة : وهكذا انكروا اسطورة قيام المسيح بعد موته ، واعتبروا ان ذلك مجرد تخيل من حوارييه ، كما ذهبوا نفس المذهب في فهم بتولة مريم التي لم تكن ، في رأيهم ، الا من نسج خيال المؤمنين القدامى الذين ، من فرط اعتزازهم بالمسيح ، تصوروا انه ولد من غير زرع بشر ومع بقاء امه عذراء . لان البكارة كانت عند الشرقيين -وما تزال- رمزا لطهارة النفس والجسد معا . لكنها اليوم في الغرب لم تعد شيئا مذكورا . ولهذا يرى هؤلاء الشراح ان البكارة لا معنى روحي لها ولا تزيد ام يسوع كرامة .

***

اما الاسلام المكبل بالطقوس المشلة والتفكير الخرافي فانه لم يتعرض في تاريخه الحديث (١) الى اي محاولة جدية لتطهيره من الطقوس المعطلة للنشاط الانساني (٢) : تبذير ملايين المواشي في الحج وعيد الاضحى كل عام ، ارتباك الانتاج في شهر رمضان (١٠٠ مليون ساعة عمل خسارة في مصر ١٩٦٨ حسب الاهرام) وازدياد استهلاك الطبقات المالكة وخراب الموازنات العائلية

١ ـ في تاريخه القديم حاولت المعتزلة تطعيمه بالفلسفة اليونانية . لكن المحاولة باءت في النهاية بالفشل . وحاولت الاسماعيلية لا تطهيره من الطقوس الشرقية وحسب بل تحويله من دين سماوي الى دين للعقل الانساني الذي لا مرجع له من خارجه .

٢ ـ حاول بورقيبه الغاء تعدد الزوجات والغاء رمضان في ١٩٥٩ . وحاول احمد بن بله الغاء عيد الاضحى في ١٩٦٤ ، لكن المحاولتين فشلتا ، لان الساعة للثورة لا للاصلاح .

المتواضعة ، تفاقم امراض المعدة والسل خاصة في الريف الفقير والاحياء العمالية ومخيمات اللاجئين . هذا فضــلا عن الطقوس البربرية في بعض المناسبات الدينية والتبذير المخيف علــى قبور الاولياء ومزاراتهم ...

صحيح ان قطاعا من سكان المدن خفف من الصيام في المشرق والصلاة في المغرب . لكن سلطان هذه الطقوس ما زال مع ذلــك ينيخ بكلكليه على ملكة النقد والابداع عند اوسع الجماهير بما فيها ذلك القطاع نفســه . وما زال قوة مرسخة لتقاليد الانضباط امام طغيان عناصر الطبيعة الغاشمة (صلاة الاستسقاء، صلاة الخسوف والكسوف الخ) . وطغيان حكام الطبقات الغاشمة (صلاة اللطيف في المغرب مثلا) .

الاستسلام للقضاء والقدر ، للكوارث وللطغاة كان وما يزال يجد في اعماق الوجدان الذي صاغــــه الاسلام استقبالا بدون اعتراض . بل ان الاعتراض يصبح ضربا من الاثــــم والكفران . فعندما اعلن الخليفة المنصور امام الوف الحجيج : «ايها الناس ان الله ملكني رقابكم واموالكم فان شئت قبضت وان شئت بسطت». صاحت الجموع المروضة دينيا ... الله .. الله يا امير المؤمنين. وعندما اعلن عبد الناصر بعد المنصور باثني عشر قرنا ، لتبريـــر هزيمة ٦٧ : «لا يعفي حذر من قدر» (١) تنفس ٩٩ بالمئة مـــن سامعيه ، والامة العربية كلها كانت تستمع ، الصعداء وأحسوا بعزاء مريح يضمد مشاعرهم الجريحة . لا شك ان الحديث قد حرك بطريق التداعي فوجا من الاحاديث والآيات والامثال المماثلة: وما اصابنا من مصيبة الا باذن الله ... وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى ان تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلــم وانتم لا تعلمون . وانما يبلو الله عباده الصابرين ... والمكتوب

---

١ ــ انظر خطبة وداعه (٩ــ٦ــ١٩٦٧) .

على الجبين تراه العين ... ليس من الضروري ان تتحرك شفاه الجميع بهذه الاحاديث والآيات والامثال ، انها جاثمة على عقولهم، انها هناك في الاعماق دركي داخلي يملي عليهم ، عن وعي او بدونه ، ردود فعلهم في اللحظات الصعبة خاصة .

***

ما زال تراثنا بمنأى عن اي تصفية حساب تاريخية مماثلة لمسلسل التصفيات التي نزلت بالتراث المسيحي : الاصلاح في القرن ١٦ع ، مادية القرن ١٨ع لكن اكثرها حسما اثنتان : الاولى عندما شنقت البورجوازية الصاعدة مع ملوكها تراثها . والثانية عندما صفت الثورات البيروقراطية ، البديل التاريخي للبورجوازية ، في شرقي اوربا المسيحية ، في آسيا الاسلامية ، وفي الشرق البوذي تراث الطبقات السابقة عنها .

اما «ثوراتنا» الفوقية ، العسكرية فانها لم تزل تحرق البخور لمزابل تراثنا الذي لم توجه اليه سبابة الاتهام منذ تسعة قرون على الاقل ، منذ اندحار الاسماعيلية الثورية !

***

المناخ النقدي ازاء التراث الذي اوجدته الاسماعيلية ـ كما سنرى ـ تلاشى . بل حتى العقلانية الانتقائية (التوفيق بين الفلسفة والدين) والمحتشمة التي نشرها المعتزلة اصبحت مستنكرة في المجتمع العربي المعطل bloquée تاريخيا والمصاب بتأخر مثلث: تأخر وسائل الانتاج، تأخر نمو الطبقات على النمط الغربي المتضمن بدوره لتأخر الصراع الطبقي ، محرك التاريخ ، وتأخر الثورة بالتالي ، الثورة التي تنسف نسفا الاوضاع السابقة عنها .

اي من مسلسل الثورات الغربية على البنى ما قبل الرأسمالية

لم تفجر مجتمعنا المعطل . وعندما انفجرت فيه لم تفجره لانهـــا كانت فوقية (مصر) وتعبيرا عن طبقات مصابة بكساح نوعي مزمن.

الثورة البورجوازية الحقيقية الوحيدة التي عرفناها كانت الاستعمار . لكن لم نعرفها الا كثورة مضادة :

ـ شوهت الصراع الطبقي مرتين : مرة بحرفه عن مساره الطبيعي : طبقة ضد طبقة ، برنامج ضد برنامج ، ليصبح صراعا دينيا ـ قوميا (١) ضد الاجنبي ـ الكافر . وهذا ما جعـــل البروليتاريا العربية المحـــدودة عددا وعـــدة تعيش انتصارات القيادات البورجوازية كانتصارات لها (تونس ، مصر ، الجزائر ، المغرب) وبالتالي دهور دورها النوعي . ومرة ثانية بتنميته ، بدلا من التناقضات الاجتماعية : ظالم ـ مظلوم ، للتناقضات العرقية: عرب ـ بربر (الجزائر ، المغرب) الاقليمية والطائفية في المشرق .

ـ جعلتنا ، خاصة بواسطة البترول ونهب المواد الخام عموما، نعرف الرأسمالية لا كسيادة للانتاج البضاعي بل كسيادة للتبادل البضاعي ، جعلنا الاستعمار سوقا له .

ـ فعل الاستعمار كل شيء ليبقى على الطابع البالي archaique للحياة العربية حيث تتجاور كل انماط الانتاج القديمة وتتعايش، فيما يشبه تنكيد الضرائر لا صراع الاضداد ، جميع الاديولوجيات التي تتناسب معها .

في ظل هذا الاستعمار وحمايته لهـــذه البنى المشلولـــة والاديولوجيات المشلّة لعب الدين دورا مرموقا في ترسيخ التأخر المثلث وفي تخليف وعي الانسان العربي وشروط حياته معا .

ـ انزل بنا **ردة** حضارية مدمرة : الغزو الاستعماري للعالم العربي لم يعد لذاكرة الجماهير ذكريات الحروب الصليبية فقط

---

١ ـ القومية العربية لم توجد منفصلة عن الاسلام ابدا .

بل انه هو نفسه كان صليبيا وكان يتظاهر بذلك . عندما احتل الفرنسيون سوريا حيًا (اوركل) جنرال فرنسي قبر صلاح الدين قائلا: ها نحن قد عدنا يا صلاح الدين. وليس بدون مدلول كون هذه الحادثة متداولة على ألسنة العامة حتى في المغرب العربي . لقد سمعتها عشرات المرات قبل ان اقرأها . وعندما احتلوا الجزائر هدموا او حولوا الى كنائس ٢٠٠٠ مسجد من بينها المسجد الاكبر في العاصمة ـ كتشاوه ـ وبعد الاستقلال حوّل من جديد من ابرشية الى مسجد . وعاشت الرجعية الجزائرية عاما كاملا على نبش تاريخه حتى اكثر تفاصيله تفاهة . وعلى تلقين الجماهير بان الاستعمار لم يكن مشروعا للنهب الاقتصادي كما يقول الماركسيون . بل كان مشروعا لنهب مساجد الاسلام وتقويض اركانه ...

أمام الاستعمار «الذي وجد في المسيحية ... تتمته الاكثر ملاءمة» (ماركس) لاذت الجماهير الشعبية العزلاء من كل سلاح للمقاومة الجدية بالتقوقع في تقاليدها الدينية ـ القومية البالية. تقريبا نفس ردود فعل رعاة جبال الالب في القرن ١٢ع على غزو الاقطاعية لهم في عقر دارهم لتدمير نمط حياتهم البطريقي .

في هذا الوضع اصبح نقد الاسلام او حتى نقد اقل طقوسه شأنا مرادفا لنقد المشاعر الشعبية ، لنقد الشكل الجوهري لقوميتها وتقويض السلاح الوحيد الذي كان بيد القوى المحلية في دفاعها ضد هجمة الهمجية البورجوازية على همجيتها التقليدية. اسوأ من ذلك بات نقد الاسلام مرادفا للخيانة الوطنية والتواطؤ مع المستعمر الكافر . كما ان نقد تخلف اللغة العربية (رسما، نحوا او مصطلحات) اصبح يعني الانتقاص من لغة القرآن ، تجريدها من اصالتها ومؤامرة على سلاح صمود الشخصية الاسلامية ـ العربية في وجه الابتلاع الغربي .

اصبح التحريض بالصراع الطبقي في المجتمع العربي ، حيث في الواقع لم يكن له الا مجال هامشي ، موصوما بكونه تصديعا

لوحدة الامة بمفهومها الاسلامي : يشد بعضها بعضا كالبنيان المرصوص .

هكذا اصيب الفكر النقدي العربي ازاء التراث الديني ـ القومي بردة حضارية شاملة عادت به الى مواقع كان قد تخطاها منذ زمان بعيد بالمعتزلة ، باخوان الصفاء ، بالفلاسفة العقلانيين والملحدين وبالاديولوجيا الاسماعلية الثورية .

انتصر الدين على الفلسفة في العالم العربي مرتين : الاولى تحت الحكم السلجوقي والثانية تحت الحكم الاوربي الاستعماري حيث ولد شعار الاصالة«العودة الى النبع»، الى السلف الصالح. هذا الشعار الذي رأى في الفكر الثوري الاممي نفيا له ، عودة بشكل آخر للصليبية الاوربية ومؤامرة لاقتلاع الامة العربية من جذورها .

***

لم تواجه الشيوعية العربية هذا الوضع ومضاعفاته بالكشف عن اسبابه علنا امام الجماهير لكي تساعدها على تحرير وعيها النقدي من استلابه الديني ـ القومي ، لكي تساعدها بقوة المثل ، بممارساتها النظرية ـ العملية الثورية على الاهتداء الى سلاح فعال للمقاومة الايجابية للاستعمار بدلا من سلاح المقاومة السلبية العاجزة والمنطوية على نفسها وماضيها . لا فقط لم تعرف كيف تواجه هذا الموقف ، بل انها لم تعرف كيف تواجه اي مشكلة قومية او اجتماعية من مشاكل المجتمع العربي . والاسوا انها حاولت هي الاخرى ، بانتقائية وديماغوجية ، استخدام نفس السلاح لكنها مع ذلك بل بسبب ذلك لم تكسب اليها اي قطاع هام من الجماهير التي شمت بحاستها السادسة رائحة

الانتهازية (١) .

وصلت بها الانتهازية الى حد انكار ، رغم الوقائع اليومية العنيدة ، ان يكون للدين عندنا نفس الوظيفة التي أداها في أوروبا ما قبل اقتصاد الاستهلاك . وظيفة التخدير : «نعم ان الشقاء والالم هما قدر الانسان» (البابااليون ، القرن ١٣ ع) . تماما كما «لا يعفي حذر من قدر» . و «الفقر مفتاح الجنة» . أو ، والكلمة هذه المرة لجلاد كومونة باريس تيير : «اريد ان اجعل تأثير رجال الدين كلي الجبروت . لاني أعتمد عليهم لترويج تلك الفلسفة الجيدة التي تعلم الانسان بأنه وجد في هذه الدنيا الفانية ليشقى، لا تلك الفلسفة الاخرى التي تقول له، بالعكس: **تمتع بالحياة**»(٢). وباختصار كانت وظيفة الدين فيأوروبا وهي اليوم عندنا مناهضة الثورة . وفي هذا المعنى حدد معنىٰ ابو نـوار ، رئيس شعبة التوجيه المعنوي في جيش عمان الوظيفة التي اداها القرآن والانجيل في تنفيذ مجزرة عمان بنجاح : « لقد طبعنا ٦٠،٠٠٠ نسخة من القرآن ووزعناها على جميع الجنود المسلمين . وقريبا جدا نأمل ان نوزع نسخا من الانجيل على جميع الجنود

---

١ ــ اشير هنا بشكل خاص الى تجربة ح.ش. الجزائري بعد الاستقلالوتجربة ح.ش. المغربي . حيث اصبح ابوذر الغفاري وعمر بن الخطاب نجمي صحافتهما، لكنهما لم يصلا ابدا بسبب الجهل الى عبد الله بن ميمون القداح، الى الحسن الصباح ، الى حمدان القرمطي او الى المعري !

٢ ــ ولهذا يقول ماركس : «الدوجم الرئيسي (للدين) هو الزهد في الدنيا، التخلي عن الحياة وجميع الحاجات الانسانية» .

ولهذا كانت الثورة ، على النقيض ، عودة للحياة ، ارضاءا فعليا لجميع الرغبات وتحقيقا لجميع الاحلام الانسانية . لذلك ايضا كانت اللحظات الثورية، التي ما ان اومضت حتى انطفأت في ليل هذا العالم القديم ، لحظات ظهور شباب العالم ، لحظات يصبح فيها الاطفال راشدين ويعود فيها الراشدون اطفالا .

المسيحيين . اصبح كل جندي الآن يضع هويته في جيب ويضع القرآن في الجيب الآخر . لقد عملنا القرآن بحجم الجيب بحيث يمكن حمله مثلما يحمل الماركسيون الكتاب الاحمر . اعتقد ان الجيش محصن في وجه الماركسية الآن . وعلى استعداد لقتال الفدائيين . ان ماركسيينا والماركسيين الاسرائيليين التقوا معا . يقولون انهم يريدون اقامة دولة ديموقراطية علمانية ، حيث ستتعايش في سلام الديانات الثلاث . من المحزن جدا ان يكون الماركسيون العرب والاسرائيليون هم الذين التقوا ولسنا نحن المحافظين عربا واسرائيليين . اعتقد اننا في غضون ٣٠ او ٤٠ عاما سنقاتل نحن والاسرائيليين معا الماركسيين » (٢) .

ليس هذا الاستخدام للدين مصادفة عارضة . بل انه استراتيجية طبقية مدروسة : سيطرة الاقلية على الاكثرية لن تدوم الا اذا قبلت بها الاكثرية نسبيا ، الا اذا استسلمت لها كقدر مقدور ، الا اذا اصبح القمع داخليا والبوليس مرابطا في رؤوس الناس الذين لا سلطان لهم على حياتهم لكي يمنعهم من وعي ذلك وضرورة الثورة عليه . ان الدين ما زال عندنا اداة فعالة لتحقيق استبطان القمع .

التعايش السلمي المعلن بين الشيوعية العربية والدين يعكس تعايشها السلمي مع الانظمة البروقراطية ـ الاتوقراطية وهدنتها المفتوحة مع الانظمة التقليدية . لقد تخلت نهائيا عن هدف قلب الانظمة البيروقراطية بل تخلت حتى عن وسيلة نقدها ، ويعكس بالتالي تخليها ـ في الواقع تخلت حتى قبل ان تشرع ـ عن صراع الطبقات لصالح تصالح الطبقات الذي هو جوهر الايديولوجية البونابارتية العربية (الناصرية ، البورقيبية الخ.) التي تعرف

---

٢ ـ جريدة Washington Post بتاريخ ٢١-١٢-١٩٧١ ، ومن الواضح ان المقابلة تمت قبل ايلول ١٩٧٠ .

فيها عجز الستالينية العربية عما كان يطمح عبثا في تحقيقه (١) .

هذا التعايش ليس الا تعبيرا عن اندماجها في الاوضاع الراهنة. كانت القيادات الشيوعية العربية ستصنع هذه الاوضاع المتعفنة لو لم تكن هي نفسها من صنعها .

لذا فان الحرب القادمة على اوضاعنا الراهنة ، التي تستمد بقاءها من الاحتفاظ بكل العاهات حتى باتت هي نفسها العاهات تجسدت اوضاعا ، اما ان تكون حربا شاملة عليها وعلى فضلاتها او لا تكون .

***

صراع الطبقات في العصر العباسي

الثورة هي الذكرى والذاكرة الاعمق لشعب من الشعوب . ذاكرة ثورتنا القادمة التي سيكون عليها ان تحل ، بعصاها غير السحرية : سلطة المجالس الشيوعية، جميع التناقضات المتراكمة والمزمنة ، وان تطيح في وقت واحد بالاستبداد دون ان تسقط في الليبرالية ، وان تقضي على التخلف دون ان تسقط في عبادة اقتصاد الانتاج وديكتاتورية الاستهلاك ، يجب ان تكون ذكرى ثورات الجماهير العربية والاعجمية التي ناطحت سماء الطغاة اربابا ، افرادا وطبقات اكثر بكثير مما تجرأ عليه اجرأ الشعوب

١ — انهيار انقلاب ح.ش. السوداني في اقل من ٧٢ ساعة بليغ في التدليل على هذا العجز الذي تعرف على نموذج ثورته البيروقراطية في انقلاب عسكري كوميدي — تراجيدي وعجزا عن توفير حتى اقل اسباب النجاح المألوفة لمثل هذه الانقلابات .

في القرون الوسطى وقاومت تسلط الاسلام على العقول وتسلط اصحاب الاقطاعات على الارض .

عندما تعود البروليتاريا العربية الحديثة الى تاريخ اسلافها الثوريين فلن تريد ، وما ينبغي لها ، التعرف على مطالبها النوعية الاكثر تبلورا ، راديكالية وشمولا في مطالبهم المحدودة بحدود وعيهم وحدود عصرهم . بل لتذكر نفسها بأن اسباب ثورتهم على الدولة ودينها واستغلالها وطغيانها ما زالت حاضرة، رغم اختلاف الشروط التاريخية ، في ثورتها القادمة التي يجب ان تكون تحقيقا لمشروع الانسان الكامل الذي لن يقبل بديلا عن امتلاك العالم والزمن للاستمتاع بالحياة المتحررة .

ما كان عند الاسلاف طموحا سديميا يجب أن يصبح اليوم عند البروليتاريا مشروعا واعيا. ولقاء المشروع الثوري الراهن بذاكرته القرمطية ، البدائية سيتم حتما على اساس تطهيرها من بقايا استلابها الديني .

***

ذاكرة جماهيرنا المظلومة التي تغير سادتها ولم تتغير شروط حياتها هي بالاخص الاديولوجيا الثورية للشيعة الاسماعلية وانتفاضاتها المتعاقبة في العصر العباسي .

***

رافق انتقال السلطة من الارستوقراطية العربية (القيسية واليمنية) التي سادت على الامبراطورية الاموية الى الارستوقراطية (العربية ، الفارسية والتركية) التي سادت على الامبراطورية العباسية ، انتقال المجتمع الاسلامي من مجتمع عشائري عسكري يغلب فيه نمط الانتاج الزراعي ولا تلعب فيه الصناعة والتجارة

الا دورا هامشيا الى مجتمع تعددي عرقيا وفكريا تغلب فيهالتجارة والتبادل البضاعي ومستقطب طبقيا بين طبقتين : طبقة الخاصة التي تملك المال والوقت الذي تبذره في الجنس واللهو والقنص وطبقة العامة التي يملكها الحرمان الشامل والسخرة .

***

طبقة الخاصة نعني بها مجموع مراتبالارستوقراطية السائدة والفئات المستغلة المرتبطة بها فيالعصر العباسي:١ـ البيروقراطية وتتكون من : الخليفة ، الرئيس الزمني والروحي للدولة وهو لا يسأل عما يفعل (١) ؛ الوزير ، الوسيط بين الخليفة ومراتب البيروقراطية الادنى، القاضي، القيم على تطبيق الشريعة والقضاء بين الناس ، حاشية البلاط وموظفوه (الجلادون ، الخدم (٢) ، المنجمون) قواد الجيش ، العمال ، ممثلو الخليفة في الولايات ، ضباط الشرطة ، المسؤولون عن الامن داخل المدن ، والجباة والسجانون ، وموظفو ديوان الانشاء .

٢ ـ اصحاب الاقطاعات ، المالكون العقاريون الكبار الذين استولوا على اراضي الفلاحين بواسطة الالجاء .

٣ ـ التجار ، وهم فئة واسعة ، غنية ومتداخلة مع المالكين العقاريين اذ ان قطاعا واسعا منهم كان يوظف رؤوس امواله في تملك الاراضي .

٤ ـ الانتليجانسيا وتضم الاطباء ، الكتاب ، المغنون ، الشعراء ـ شعراؤنا كانوا دائما الا فيما ندر شعراء دولة ! ـ والمترجمون ، فقد كان المنصور مثلا يدفع لحنين المترجم ٢٥٠

١ ـ تماما كما هو الآن حتى في الجمهوريات الاشتراكية !

٢ ـ في القرن الثالث .

دينار شهريا ووزن الكتاب الذي يترجمه ذهبا .
٥ ــ رجال الدين او العلماء كما كانوا يسمون عهدئذ .

***

وهم خمس مراتب اساسية :
١ ــ القضاة .
٢ ــ الائمة ، وقد لعبوا دور الاذاعة اليوم في تطويع الرعية للخليفة الذي يضعون الولاء له بمنزله الايمان .
٣ ــ الفقهاء ، الذين كانوا قادة الرأي ، موجهي افكار الناس ومفبركي الاحكام والاجتهادات لمن يحتاجها من رجال السلطان او من التجار . وكانت لهم هيبة روحية في نفوس الناس : « أين لذة الملوك من لذة ما نحن فيه . لو فطنوا لقاتلونا عليه » (ابو حنيفه) .
٤ ــ المحدثون ، ومهمتهم ، الا القليلون ، اختلاق الاحاديث لتبرير نزوات الحكام او مطالب هذا او ذاك من الاحزاب المتنافسة . ويبدو ان كل حزب كان له محدثوه .
٥ ــ الوعاظ ، الذين كانوا يدخلون على الخلفاء ليعظوهم معطين لانفسهم ولهم الشعور براحة الضمير . يشبه دورهم دور كاهن الاعتراف في المسيحية .

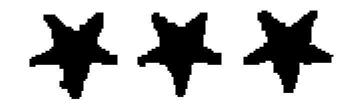
***

كان رجال الدين حجر الزاوية لسلطة الاتوقراطية الخلافية . بدون فتاويهم ودسائسهم لم يكن الخلفاء بقادرين ، بكل تلك السهولة ، على تصفية المعارضة بتهمة المروق عن الدين ، ونادرا ما اقدم خليفة على دق عنق معارض ديني او سياسي قبل الحصول على فتوى شفوية او كتابية من واحد او اكثر من العلماء المشهورين في عهده .

غالبية رجال الدين كانوا متداخلين مع الدولة الجائـرة ، الا قلة من الفقراء والاتقياء منهم كانت تشكل المعارضة السلبية لهم وللدولة . مضمون معارضتها : الاحتجاج على مداخلة رجـال الدين للسلطان الجائر (الدولة) . واعتقد ان الاحاديث الموضوعة، ما في ذلك شك ، للتنديد بتواطؤ رجال الدين ورجال الدولة على حساب الشعب هي من وضع هذه المعارضة وعامة الشعب. مثل: « صنفان من امتي اذا صلحا صلحت الامة واذا فسـدا فسدت : السلطان والعلماء » و « هلاك امتي : عالم فاجر وعابد جاهل » .

قويت هذه المعارضة الدينية الشعبية في القرن الثالث حيث كان تواطؤ رجال الدين والبلاط ضد ثورات العامة جليا الى درجة ان الفقيه الفقير ابو بكر الاجري تجاسر على تأليف كتابه : **اخلاق العلماء وادابهم** الذي ضمنه مقارنة لاذعة بين علماء السلف الذين لم يتقربـوا من السلطان لان « السلطان من لا يعرف السلطان » عندهم . والذين كانوا يرون الجهاد « كلمة حق تقال في وجـه سلطان جائر» ، وبين علماء عصره : «الفسقة ، الفجرة» الذيـن « يداخلون السلطان الجائر » و « يحتقرون ما دونه من العباد » . وفي كلمات نارية شهر بحبهم للدنيا واقبالهم على المال والشهـرة وحرصهم على مجالسة الملوك وادارة ظهرهم للدين... مستشهدا بعشرات الاحاديث ، التي ربما اسهم هو نفسـه في وضعهـا ، والتي تحرض العامة على رجال الدين والسلطان ، مثل : « يكون عليكم امراء تعرفون منهم وتنكرون ، فمن انكر فقد بريء ، ومـن كره فقد سلم . لكن من رضي وتابع فأبعده الله » .

في القرن الخامس صنف ابن عبد البر القرطبي كتابه : جامع بيان العلم وفضله . اغنى فيه بوقائع عصره وثيقة اتهام الاجري لعلماء القرن الثالث، قائلا : « لم يزل الفساد متزايدا على ما ذكرنا اضعافا مضاعفة . فلا حول ولا قوة الا بالله » .



في الامبراطورية الاموية كان الفرز الاساسي عنصريا : بين العرب والموالي . فأصبح في الامبراطورية العباسية اجتماعيا : بين الارستوقراطية والعامة ، بين ذوي السلطان والذين لا سلطان لهم على استخدام حياتهم .

في العهد الجديد نما التنظيم الاداري ، التجاري ، الزراعي والصناعي نموا ضخما . غدت بغداد مركز التجارة العالمية توريدا وتصديرا . اصبحت الدولة المركزية ، المراتبية والمنظمة اداة نهب داخلي وخارجي لم يسبق له مثيل . فقد بلغ دخل الدولة السنوي في عهد الرشيد ، على حد تقييم ابن خلدون ، ٧٠ مليونا و ١٥٠ الف دينار . وهي موازنة ضخمة بالمقارنة مع موازنات الدول القديمة . مصادر هذه الموازنة : الخراج على الارض ، الجزية المفروضة على اهل الذمة والشعوب المقهورة ، الضرائب المفروضة على اهل الصناعات والحرف والزكاة ...

لم يعد الخليفة ، كما كان في العهد الاموي ، مجرد شيخ قبيلة مهيب ، بدون وزير وبدون طقوس يستقبل الناس ويجلس للفصل في المظالم بين العامة ، بل تحول الى امبراطور تبنى تقاليد البلاط الفارسي والرومي من اتخاذ الوزير الى الاحتجاب عن الناس .

بتعقد مراتب السلطة ازداد اضطهاد عامة الشعب . لكن الاضطهاد لم يكن ، في الواقع ، مقصورا عليه بل كان معمما ومراتبيا : تمارسه بدون ضابط المرتبة العليا ضد المرتبة الادنى : الخليفة يصادر املاك الوزير ، والوزير يصادر املاك مرؤسيه . والعمال (الولاة) يصادرون املاك الاغنياء وحياة الفقراء .

لقد كان ديوان المصادرة سيفا مسلطا على اعناق الجميع بما في ذلك الخلفاء انفسهم على عهد استبداد قادة الجيش الاتراك بالسلطة .

هذا الديوان شاهد اثبات آخر على الدور المضاد للتقدم التاريخي الذي لعبه وما يزال الاستبداد الشرقي : تحكم الفرد الحاكم في مراتب البيروقراطية وتحكم هذه الاخيرة في الطبقة .

من هنا أسبقية الدولة ظهورا واهمية على الطبقة وبالتالي استقلالها عنها وتحكمها فيها .. عكس المسار العام لبروتسيس التاريخ الغربي . في اليونان كانت السلطة تعبيرا عن رأي السادة الذين يختارون قيادتهم من بينهم . اما دولة الاستبداد الشرقي فهي مغلقة عن كل ديموقراطية وحوار . السلطة فيها لا تنبع عن مجلس شيوخ ، او مجمع كرادلة او برلمان بل من حد السيف ومن ثورات القصور . الخليفة هو الذي يختار ولي عهده على هواه ، لا حسب تقليد مرعي يشجععلى الاستقرار ويقتصد حروب الاسر، ثم يأخذ له البيعة **الاسمية** من حاشيته ، قواد جيشه ورجال دينه بمحضر السيف والنطع والجلاد !

السلطة عبر التاريخ العربي كله كانت ـ وما زالت ـ دائما فوق القانون ، سواء كان قانونا وضعيا ، ومن وضعها هي نفسها، او قرآنا. ولم ينجح كفاح المعارضات القديمة والحديثة لكي يصبح القانون فوق السلطة !

لم يكن مثل هذا النظام الاستبدادي الفردي يساعد على تشكيل طبقة سائدة متماسكة تغلب مصالحها الشاملة على المصالح الفئوية لهذا او ذاك من اجنحتها او افرادها ، وكل انتعاش لطبقة اجتماعية ، مثل انتعاش التجار وملاك الارض في العصر العباسي الاول ، انما هو انتعاش ظرفي على رحمة نزوة من نزوات الخليفة التي لا يستطيع احد ان يتنبأ بها او يعترض عليها (نكبة البرامكة مثلا) .

***

في ظل الاستقرار النسبي الذي تميز به عهدا الرشيد والمأمون « تكونت طبقة من التجار تملك الاموال الطائلة ، وقد بلغت ثروات البعض الملايين وظهرت فئة رأسمالية نشطة ، وكونوا انواعا من الشركات مثل شركة الضمان (تشبه شركة المساهمة) وشركة

المفاوضة (حيث تبقى رؤوس الاموال مستقلة) ، وشركة الوجوه، وتكون الاختصاص بين التجار » (١) .

فعلا تنوعت التجارة وتخصصت اي ان تقسيم العمل فيها بلغ درجة عليا . فقد كانت واردات بغداد متنوعة جدا ، من الصين : البورسلين ، الحرير والمسك . من الهند وجزر الملايا : البهارات ، العطور ، الاصبغه، المعادن ، العسل ، الشمع والفرو. ومن السويد وروسيا : العبيد البيض للإستمتاع الجنسي . ومن افريقيا : العاج ، الذهب والعبيد السود للاستعمال المنزلي والزراعي .

نشطت الصناعات ، تنوعت وتخصصت هي الاخرى : صناعة الاقمشة ، المرايا المعدنية ، الورق ، الجواهر ، الحلي ، صناعة الساعات ، تجليد الكتب ، صناعة العطور ، النسيج والحرير خاصة في الكوفة .

قامت القصور في بغداد ، التي كانت على عهد الرشيد تعد مليوني ساكن ، نفس عدد سكان باريس في ١٨٧١ . احتلت ارستوقراطية الدم والمال حي الرصافة . وغدت بغداد مدينة الملاهي حقا التي ينفق فيها الخلفاء ، الوزراء ، الاغنياء والادباء فائض وقتهم في الافراح المستمرة ، بينما سواد الشعب الذي لا مال ولا وقت ــ بالتالي ــ لديه غارق في الاتراح المستمرة . هب رجال الدين يفتون للارستوقراطية والخليفة بشرب اصناف من

١ ــ مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، تأليف الدكتور عبد العزيز الدوري (دار الطليعة) . والدوري مؤرخ خلدوني واسع الإطلاع ، نادر بين المعاصرين من المؤرخين العرب . لولا انه ، وربما لاسباب اديولوجية ، يتخلى احيانا عن عقلانيته التي تعطي الانطباع بالصرامة ، ليسقط في الوعظ الاخلاقي . وحبذا لو يترك كرسي الجامعة ليتفرغ لكتابة التاريخ الاقتصادي العربي برؤيا تاريخية نقدية لا تتنازل للعواطف حتى النبيل منها .

الخمور (الجعة ، الطلاء ، نبيذ التمر) (١) ويتحايلون على الشريعة

١ ــ حلل رجال الدين للارستوقراطية السائدة شرب اصناف من الخمور . ظهرت هذه الفتاوي ، اول ما ظهرت ، في بغداد الحنفية وفي الاندلس الظاهرية. حللت الحنفية شرب بعض الخمور المستخرجة من التمور مثل الطلاء . (مساء الحياة) . في الاندلس نجد المذهب الظاهري ، مذهب داؤود الظاهري ، الذي كان المذهب الرسمي للامويين في الاندلس طوال ١٥٠ عاما ، والذي سمي بالظاهري لانه ينكر التأويل للنصوص الدينية ، كما ينكر القياس ، الذي رأى فيه بحق جمودا لا يطاق، لانه يطبق حالات لاحقة مختلفة نوعيا ، زمانا ومكانا وشروطا تاريخية ، على حالات سابقة عزلت من مضمونها الفعلي . حلل المذهب الظاهري شرب كل اصناف الخمور ما عدا النبيذ الذي كانت تشربه قريش حين نزول آية التحريم . لان ال في «وحرمت عليكم الخمر» عهدية . اي الخمر العينية ، اياها .

اما المالكية ، وهي على العموم مذهب الريف الفقير والمتقشف والمحافظ فقد حرمت جميع اصناف الخمور وباي كمية كانت . لان «ما اسكر كثيره فقليله حرام» . وهذا يفسر انتشار المالكية في صحراء الجزيرة وبين ارياف وبرابرة شمال افريقيا . وانتشار الحنفية في بغداد ومختلف المدن الاسلامية وانتشار الظاهرية في الاندلس .

سخر آية الله الزمخشري ، صاحب التفسير الشهير المعروف باسمه ، من جميع المذاهب الفقهية بهذه الابيات :

ان قلت حنفيا ، قالوا عني بانني : ابيح لهم شرب الطلاء وهو الشراب المحرّم!
وان قلت : مالكيا، قالوا عني بانني: ابيح لهم اكل الكلاب وهم هم !
وان قلت : حنبليا، قالوا عني بانني: حلو لي بغيض مجسم !
وان قلت: شافعيا، قالوا عني بانني: ابيح نكاح البنت والبنت تحرم !
وان قلت : من اهل الحديث وحزبه: يقولون : عير ليس يدري ويفهم !

الحنفية تبيح شرب الطلاء ـ المالكية تبيح اكل الكلاب . والحنبلية تقول ان الله مجسم له يد مادية ويجلس على كرسي مادي . والشافعية تبيح

لتسهيل المعاملات الربوية استجابة لرغبة التجار . وبعض رجال الدين انفسهم كانوا تجارا !

لم تكن بغداد باذخة وحسب بل كانت مبذرة : الرشيد ينفق على طعامه ١٠ الاف درهم يوميا . ويوميا يعد له الطهاة ٣٠ صنفا من الطعام . (المسعودي) . وعند زفافه بزبيدة كان يهب للناس اواني الذهب مملوءة فضة واواني الفضة مملوءة ذهبا . وغالى في تزيينها بالحلي حتى عجزت عن المشي لكثرة ما كان عليها من الجواهر .

كان البيروقراطيون والاغنياء على دين خليفتهم فانتشر التبذير بينهم ، وقويت شهيتهم للنهب .

كان هذا التبذير استفزازا غير حكيم لبؤس الجماهير الكادحة في المدن التي كانت على حافة المجاعة : اجرة عامل البناء **ثلث** درهم في اليوم . بينما اجرة الجندي درهم . ودخل القاضي ٨ دنانير يوميا . اما عن بؤس العاطلين والفئات الهامشية كالشطار والعيارين ، التي افرزتها هجرة الريفيين الى المدن واختلال التوازن بين عدد السكان وامكانيات الاستخدام، فحدث ولا حرج!

ظل الريف بطريقيا ، بدويا وفقيرا . والقصة المروية في **الاغاني** دلالة : فقد شهد الشاعر البدوي : ناهض بن شولة عرسا بمدينة حلب فأصيب بالجنون لما هاله من الوان الطعام والملابس والات الغناء ومظاهر البذخ الفارسي .

كان وضع طبقة العوام : الموالي ، العبيد ، عمال الزراعة ، الفلاحين ، العمال (الفعلة) ، أهل الصناعات والحرف وجماهير البدو ، لا يطاق . ومع ذلك فقد كانت هدفا للنهب الهمجي : نهب

الزواج بالبنت اذا كانت وليدة زناء لا زواج شرعي . واهل الحديث عير اي حمير ! (الرخص من جميع المذاهب) .

الحكومة المركزية وممثليها في الولايات . ولعل اتهام الرشيد (١)، لعامله على الشام عندما ادخل عليه مكبلا بالاغلال ، ابلغ من الاستشهادات والاحصاءات التقريبية : « اوليتك دمشق وهي جنة بها غدر تتكفأ امواجها على رياض كالزرابي ، واردة منها كفاية المؤن الى بيوت اموالي ، فما برح بك التعدي (...) حتى جعلتها اجرد من الصخر وأوحش من القفر» (المسعودي) وعندما صادر نفس الرشيد اموال عامله بخرسان ، علي بن عيسى ، حملت اليه على ١٥٠٠ بعير ، نهبت من عرق الناس وخبزهم اليومي .

***

من البديهي ان التغيرات في المجتمع العباسي لم تكن اقتصادية وحسب بل كانت انقلابا شاملا على جميع الاصعدة : الاقتصادية ، السياسية ، العرقية والاديولوجية . التعدد العرقي والاجتماعي كان يتطلب تعددا فكريا وسياسيا : هكذا فتح هذا المجتمع التجاري نوافذه لكل الرياح . خاصة لرياح الفلسفة اليونانية التي حاول المستنيرون من المفكرين المسلمين عقلنة الاسلام بها: التوفيق بين النقل والعقل،بين الفكر الارستوطاليسي والشريعة المحمدية . ومن الذين اضطلعوا بهذه المهمة المعتزلة . والمعتزلة هم التركيب الذي اعطاه لقاء نهوض البورجوازية التجارية بالفكر اليوناني . فالانسان ، في تحليلهم ، خالق افعاله كما ان التاجر خالق ثروته . والله هو مبدع قوانين الكون العامة اما الشؤون الصغيرة ، التطبيقات الارضية فقد تركها لعناية الحرية الانسانية . .تماما على صورة الملك الدستوري الذي كانوا يحلمون به قبل ان تنزل على رقابهم سيوف المتوكل (٢) .

---

١ ـ على ان النهب في عهد المأمون ، المعتصم وهلم جرًّا كان اشرس !

٢ ـ سنعود لهذا الموضوع بالتفصيل في كراسنا القادم .

كان الباب ايضا مفتوحا او مواربا امام تأثير الديانات والهرطقات الفارسية الوثنية وغيرها التي قهرها الاسلام كما قهر شعوبها .

فلا عجب اذن ان تكون جميع المدارس ، الفرق والهرطقات الثورية والرجعية التي شكلت العمود الفقري للحضارة العربية ، ظهرت او تحددت ملامحها واختياراتها في مناخ الصراع الاجتماعي المحتدم على الصعيدين السياسي والاديولوجي لهذا العصر الذي تمكن مقارنته ، مع حفظ الفوارق ، بعصر الانوار في القرن ١٨ ع. ففيه بدأ الصراع الطبقي يتمتم باسمه. وفيه ولد رواد الشيوعية، اجداد البروليتاريا العربية الحديثة ، التي شرعت في الصراخ باسم صراعها الطبقي في حلوان والدار البيضاء ... وقريبا في كل مكان .

***

لامر ما انطلقت معظم الهرطقات والحركات الثورية في العصر العباسي من الكوفة، باريس القرن ١٩ ع ، لقد كان الفرز والصراع الطبقي فيها واضحين : الزراع الكبار ، التجار ، البيروقراطية ورجال الدين في قطب . وفي القطب الآخر لفيف العامة من الموالي الى الزنج مرورا بالعمال والشطار والفلاحين وهم اجراء لاملكية لهم او اقنان محرومون حتى من الحرية الشخصية .

« كان في الكوفة اقلية تملك الارض الواسعة . وكان المالكون عربا وغير عرب . وكان الفلاحون خليطا من فرس وانباط وعرب، لذا كان طبيعيا ان يكون الانقسام فيها على اساس اقتصادي . كما ان الكوفة مركز تجاري ، لوقوعها على طريق الحج ، كما انها مركز صناعات مهمة كصناعات العطور والنسيج ، مما كون فيها طبقة صغيرة ثرية من ارستوقراطية التجار واصحاب المعامل ، اضافة الى ارستوقراطية الزراع ، فكان **تذمر الفلاحين والعمال قويا**

ثم ان الكوفة مركز ثقافي هام انتشرت فيه الفلسفة اليونانية وحركة الزندقة بين المثقفين فوسعت الشكوك بينهم وزعزعت اراءهم الدينية الاسلامية » . (ع. الدوري) .

في هذا المجتمع المستقطب خلت التقاليد البطريقية ، الدينية والقومية التي كانت تطمس الصراع الطبقي مكانها للتبادل البضاعي والصراع الاجتماعي .

لم يعد معيار الصلاح هو التقوى كما كان في عهد محمد وخلفائه: ابو بكر، عمر وعلي. ولم يعد الدم العربي كما كان في العهد الاموي بل اصبح ارستوقراطية المال والدم (التجار ... وآل العباس) : « لا بد لكم من كتاب وعمال واعوان ، فاستعينوا **بالاشراف** واياكم **وسفلة الناس** ، فان النعمة على الاشراف ابقى ، وهي بهم احسن ، والمعروف عندهم اشهر والشكر منهم اكثر» .
(من وصية يحي بن خالد البرمكي لبنيه) (المسعودي) .

وامام التخلي الفعلي الصريح للخلفاء والاغنياء ومعظم رجال الدين عن الدين ، فقد العزاء الديني قوة ضبطه لجموع البائسين. وبدت سيطرة الخاصة على العامة بدون قناع ، واصبحت بالتالي عرضة لنقد اللسان ونقد السلاح .

تلك هي حال المجتمع الاسلامي في نهاية القرن الثاني الذي فقد غطاءه الديني للحاكمين ولجامه الديني للمحكومين . فاختل توازنه العام وتصاعد فيه الصراع بين الطبقات الظالمة والمظلومة .

***

على امتداد القرون الثالث ، الرابع والخامس ، انفجر هذا الصراع حروبا اهلية مختلفة هدفا سياسيا وتركيبا اجتماعيا عن الحروب الاهلية الشيعية والخارجية التي دارت رحاها في ظل الامبراطورية الاموية وضدها . لم يعد تنصيب آل علي او انتخاب

امام كفاء (الخوارج (١)) هو الهدف الجوهري المعلن للحرب الاهلية . بل بات الاستيلاء الجماعي على الارض ، المساواة في الثروة ، المساواة بين الرجل والمرأة ، اقامة حكومة الشورى (الديموقراطية) ، عبادة العقل **والتمتع بالحياة** هي مضمون البرنامج الذي على شرط وضعه موضع التطبيق ، يأتي للحكم الامام (الحزب الثوري) اسماعليا كان ام مستقلا مثل صاحب الزنج . لم يعد الامام الشيعي ، كما كان عند الاوائل ، انتسابا اسرويا الى آل علي بل اصبح ولاء فكريا للاسماعيلية الباطنية والتزاما ببرنامج ثورتها : ملء الارض عدلا بعدما امتلأت جورا بعد الاطاحة بالدولة العباسية ودينها بالنسبة للراديكالين او بتفسيره السني بالنسبة للمعتدلين .

من السخف الادعاء ، كما فعل بعض العرب والمستشرقين ، بأن هذه الصراعات كانت دينية ، فوقية ومستقلة عن الطبقات الاجتماعية ومطالبها . بل انها ، كما سنرى ، وكما لاحظ انجلز « حركات ولدت من اسباب اقتصادية رغم انها كانت تحمل قناعا دينيا » أحيانا شبفافا جدا ، لانها لم تكن قادرة على مواجهة عدوها بدونه . وفي امكاننا اليوم تحديد الفرقاء الطبقيين لمعظم الفرق والهرطقات التي تصارعت في ظل الدولة الاسلامية من محمد الى عبد الناصر .

***

١ ــ كان بين الخوارج جناح فوضوي ينكر الامامة (الدولة) ويقول لا داعي للامامة وانما حسب الناس أن يتعاطوا الحق بينهم .

موقف الشيوعية العربية الاولى من الدين ؟

قبل ظهور المعارضة الشيوعية الاسماعيلية ، واجهت الدولة الاسلامية معارضات اصلاحية تختلف راديكالية واعتدالا تبعا لخلفيتها الاجتماعية والشروط الفعلية التي ولدتها . من بينها ، وليس اكثرها اهمية ، حزب القدرية (١) ، حزب الاختيار الذي رفع شعار: **الانسان مخيّر لا مسير.** والشر ليس قضاء وقدرا من الله بل تقديرا من الحكام :

« هؤلاء الملوك يسفكون دماء المسلمين ، ويأخذون اموالهم ويقولون : انما تجري اعمالنا على الناس بقدر الله تعالى » . **(معبد الجهمي)** .

عبرت القدرية عن مصالح الاتقياء والفقراء من رجال الدين ، تلاميذ ابي ذر الغفاري ، الذين هالهم ابتعاد السلطة الاموية عن بعض المبادىء السوائية في الاسلام البدائي فكانوا لسان مصالح العامة والعناصر المدينية في دمشق : من المثقفين المستنيرين ، اهل الصناعات والحرف كما كانوا صدى لمطامح الموالي والقبائل العربية الضعيفة غير القريشية . هؤلاء جميعا كانوا يطمحون لحكم دستوري يكونون هم اقوى منه لاستبداله عندما لا يخدم مصالحهم ومثلهم اي يخرق الدستور : الشريعة . هذا هو معنى تصريح زعماء القدرية :

« الامامة تصلح في غير قريش . واذا اجتمع قريشي ونبطي، قدمنا النبطي اذ هو اقل عددا واضعف وسيلة ، فيمكننا خلعه اذا خالف الشريعة » .

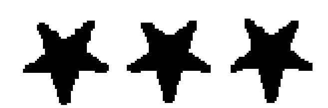
في الخندق المقابل للقدرية تقف الجبرية : « الانسان مسير

١ – التسمية لا تنطبق على مضمون هرطقتهم ، وهي من اختراع اعدائهم . والصحيح تسميتهم حزب الاختيار في مقابل حزب الجبر (الجبرية) .

لا مخير » ، حزب النظام . الجبرية تنفي الممكن في تعريفها للواقع واعترافها به ، تحصر الانسان في المعطى : «وما اصاب من مصيبة الا باذن الله » . وتجعله اسير الوضع المقدور : « قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا » . وبذلك فهي فلسفة المحافظة على النظـام ـ مثل الوضعية المعاصرة ! ـ ومناهضة التجديـد ، الاصـــلاح وبالاحرى الثورة .

اما عند القدرية فالواقع ليس قدرا مقدورا بل امكانية ضمن امكانيات قابلة للتحقق التاريخي . مهمة الناس : اختيار الامكانية الانسب لمصالحهم ونفي الامكانيات المناهضة لمصالحهم . لكن اذا تحققت هذه الاخيرة ، وهو ما حصل بتحقق سلطة بني امية ، فما العمل ؟ هل تقبل الجماهير الوضع القائم باعتباره شرا ، وشر ما فيه انه لا بد منه ، (الجبرية) ؟ ام ترجأ الحكم له او عليه الى يوم الحساب (المرجئة) ؟ اما القدرية فتجيب : كلا ، علينا ان نتجشم تحريض الناس عليه .

هكذا تكون القدرية حزبا ينقصه ، بالتأكيد ، التماســـك ، الراديكالية القصوى ، التنظيم والبرنامج . لكنه حزب ينقد الواقع ويطمح لتغييره نحو الاصلح . وبذلك يكون رائد الاحزاب الثورية اللاحقة في العصر العباسي التي سوف لن تكتفي بمجادلة النظام القائم بالتي هي احسن (اللسان) بل ستضيف الى جدال اللسان جدال السيوف ، وجدال السيوف خير جدال !



فشل المعارضات الاصلاحية (١) في تحقيــق برنامجهـــا ،

---

١ ـ لن نقيم هنا توازيا تاريخيا بين هزائم الهرطقات الاصلاحية ونمو الهرطقات الثورية. حسبنا ان نشير الىانه مثلا بانتصار الاشعريةعلى المعتزلةفي مهد =

الشروط الاجتماعية الجديدة ، ازمـة النظـام العباسي ، ضعف مركزيته وزوال هيبته شيئا فشيئا هيأ الظروف للمعارضة الثورية الهادفة لا لتلطيف جور النظام بل لقلبه .

عبرت هذه المعارضات الهدامة عن نفسها مرة في شكل تصوفي (الحلاج ، زعيم الحلاقين)، ومرة في شكل ردات دينية او حروب قومية ومرارا في شكل انتفاضات مسلحة وثورية حتى النهايـة الممكنة . وهذا الشكل الاخير هو الذي يهمنا الآن .

***

الثورة الشيوعية الام التي الهمت كل الثورات الراديكاليـة ، في العصر العباسي ، هي ثورة بابك الخرمي (٢٠١ ــ ٢٢٣ هـ) . التي اندلعت ردا على حنث الثورة العباسية وتنكرها لبرنامجها :

المتوكل ، ثم بتكوين مدارس الدولة السنية في عهد نظام الملك والسلاجقـة ببغداد ، كرد على الازهر الفاطمي من جهة ولتخريج بيروقراطية ومفكريـن مطواعين للدولة ومنسجمين مع ايديولوجيتها السنية من جهة اخـرى ، اتكلت الدولة السنية مباشرة على نفسها لترويج اوهامها عن نفسها . وهكذا وجهت طعنة قاتلة للحضارة اليونانية وتأثيراتها على المعتزلة والهرطقات العقلانية . فقـد احتكر الفقهاء من امثال الغزالي ، صديق نظام الملك ومستشاره ، الغزالي الذي قال : «يجوز للجبل ان يصبح حصانا باذن الله تعالى» **الثقافة الفكرية** . واكتسبت الثقافة نفسها طابعا لاهوتيا مدمرا . وغدت العلوم كلها فروعا موضوعة تحت وصاية الفقه الديني . وهكذا حسمت الدولة السنية الانتصار الحاسم للدين على الفلسفة في ساحة الصراع الشرعي légale ولم يبق على الفلسفة النقدية المهزومة الا ان تلتجىء الى السرية ، الى اخوان الصفاء ، او ان تحمل السلاح وتلتحق بجبال الاسماعيلية وقلاعها حيث سيأخذ العقل ثأره من النقل وستقتص الفلسفة لنفسها من الدين . لكن لفترة تاريخية عابرة !

مساواة العرب بالموالي في العطاء والوظائف والعودة الى اممية الاسلام البدائي الذي لا يفرق بين عربي واعجمي الا بالتقوى . عمليا ترجم العباسيون مساواة العرب بالموالي بالمساواة بين الارستوقراطية العربية والفارسية . وأممية الاسلام بأممية التجارة .

طوال ٢٢ عاما حرض دعاة الثورة نظريا وعمليا جماهير الفلاحين الاجراء على الفتك بأصحاب الاقطاعات والاستيلاء الجماعي على أملاكهم . كما حرضوا عوام المدن على الفتك بالتجار ونهب مخازنهم .

كانت الثورة الخرمية طموحا جسورا لتقويض الارستوقراطية السائدة العربية والفارسية بثورة الجموع المظلومة من كل القوميات والمعتقدات وتشييد مجتمع جمهوري لا مكان فيه لاستغلال قومية لاخرى ، لاستغلال طبقة لاخرى، لاستغلال الرجل للمرأة ولا مكان فيه للقومية او للدين وتحاريمه، وشعاره : « اباحة النساء على الرضى منهن واباحة كل ما **يلذ للنفس وينزع اليه الطبع** ما لم يعد على احد بضرر » (المقدسي ـ انظر الحركات الفكرية في الاسلام، بندلي جوزي) .

***

سنجد هذا الاتجاه الجمهوري ، السوائي égalitaire والعلماني في الحركات والثورات الاسماعيلية (الباطنية

---

١ ـ سمي الاسماعيليون بالباطنية لانهم من جهة يقولون: «ان لكل ظاهر باطنا» و«لكل تنزيل تأويل» ولانهم ، من جهة أخرى ، حزب سري يكتم اسماء زعمائه ، تنظيماته وبعض أهدافه . فبعد ان انتصر العباسيون وامتلكوا الدولة، (الرجال ، والمال والسلاح) وأداروا ظهورهم وسيوفهم لحلفائهم وابناء عمهم :

العديدة والراديكالية ، بدرجات مختلفة ، من القرمطية الى الفاطمية (١) مرورا بالحشاشين والدروز (الموحدين) والزيدية اليمنية .

لان الحركة الاسماعيلية غطت، مكانا ، مساحات شاسعة تمتد من البحرين شرقا الى المغرب العربي غربا . وغطت ، زمانا ، ثلاثة قرون . وضمت تجمعا طبقيا امميا عريضا وتأثرت بجميع الملابسات الظرفية ، فانها كانت تنطوي على اجنحة متعددة تختلف راديكالية واعتدالا باختلاف المكان والزمان والنوعية الاجتماعية للفئات المعنية . لكن مما لا ريب فيه ان الجناح الفارسي للحركة كان اقصى يسارها خاصة في الموقف من الدين . وهو موقف اقرب الى العقلانية وأبعد عن قتل الجسد واحتقار المادة ، تماما كما لعب نفور بدو الجزيرة العربية من طقوس الاسلام خاصة

العلويين ، لم يبق امام هؤلاء ، وهم قلة رجالا ، مالا وسلاحا ، الا الاعتماد اساسا على سلاح الايديولوجيا، قوة العزيمة وبراعة الدعاة (المحرضين) .

١ ــ ما ان تجسدت الاسماعيلية الفاطمية الثورية في دولة مصر حتى اصبحت ضد نفسها اي ضد الثورة . فقد عدلت عن محاربة المؤسسات الاسلامية . واصبح هدفها ليس تحقيق برنامجها المعلن بل المحافظة على دولتها. والارستوقراطية الادارية ، الدينية والعسكرية التي كانت على رأسها . لم تكن ثورة الجناح المتطرف من الحزب القرمطي على الفاطميين ومحاربتهم لهم الا احتجاجا مشروعا على هذه الردة البيروقراطية ، على تشكل نموذج الدولة السنية الرجعي في صلب الدولة الفاطمية التي كانت من حيث المبدأ اداة نفيه: انفصال النظرية عن الممارسة، خيبة الجماهير التي لم تتغير شروط حياتها، سحب الاجنحة الثورية الاسماعيلية مساندتها للفاطميين وعسكرة الحكم تدريجيا الى ان تحول، خاصة بعد موت الحاكم بأمر الله، الى ديكتاتورية اتوقراطية عسكرية ادى الى سقوط الحكم الفاطمي، بعد قرنين من السيادة (٤٩٧ ــ ٥٦٧) ، على يد صلاح الدين الايوبي لصالح السنة الحاكمة في بغداد .

الزكاةدورا فيتجدير الجناح القرمطيللحركة ونجاحه فيالبحرين.

***

منظر الحركة الاسماعيلية الاول هو عبد الله ابن ميمون. وكان عقلانيا لامعا مطلعا على جميع الفلسفات والاديان. ولا شك انه ترك بصماته على الحركة من مبتدئها الى منتهاها ، وهو القائل : «ان الائمة والاديان والاخلاق ليست الا ضلالا وسخرية » .

أهم ما أعطت الاسماعلية : الدولة الفاطميـة ، الجمهوريـة القرمطية في البحرين، حركة الحشاشين في فارس وسوريا الخ. وانجبت على الصعيد الفكري مدرسة اخوان الصفاء التي يمكن تشبيهها بفلاسفة عصر الانوار ، واثرت قليلا او كثيرا في المع الشعراء والفلاسفة العرب الذين عايشوها : المتنبي ، المعري ، ابن هانيء ...

ليس من الصعب الحدس بأن الاسماعيلية التي حللت الدين تحليلا تاريخيا نقديا وردت للفلسفة اعتبارها قد لاقت هوى في نفوس المفكرين اللامعين . فقد اشار المقريزي الى ان الاسماعيلية ترى ان الشرائع لم تسن الا لتقييد العامة وصيانـة المصالح الدنيوية للخاصة من الحكام وذوي السلطان ، **اما المثقفون فلا حاجة لهم بها .**

كما انه من السهل كذلك افتراض انها صادفت هوى في نفوس العرب (خاصة البدو) الذين لم يعتنقوا الاسلام الا خوفا او طمعا ولم تفسح لهم الارستوقراطية الحاكمة مكانا بينها ، وفي نفوس الشعوب الوثنية الاخرى التي لم تدخل الاسلام اصلا او دخلته لدفع الاضطهاد الديني والاجتماعي . ولعل المعري عبر على هوى هؤلاء بقوله :

ان الديانات القت بيننا إحنا وعلمتنا افانين العداوات :
وهل ابيحت نساء الروم للعرب الا بأحكام الديانـات !

وهناك قرابة ما بين عبادة العقل الاسماعيلية والوثنية التي كانت دين الناس الاحرار وغير المحرومين . على عكس الديانات شبه التاريخية .

امام استبداد الدولة الاسلامية التي استبعدت من حقل نظرها كل معارضة او حتى اعتراض . لم يستطع الحزب الاسماعيلي الا ان يكون حزبا سريا . وبالنتيجة بيروقراطيا شديد وعديد المراتب: ٧ مراتب آخرها الالحاد والاباحية الكاملة .

الحزب الاسماعلي حزب طليعي غير مفتوح الا للكوادر التي تعرف القراءة والكتابة وتتمتع بدرجة معينة من الوعي النقدي ازاء الاديولوجيات المعادية والنظام القائم . وللحزب ما يمكن تسميته بمدرسة كوادر يجذر فيها وعي المنتمين الجدد ويزودهم بمعلومات مراتبية عن برنامج الحزب وموقفه من قضايا الدين والدنيا . اما الجماهير المتخلفة ، التي كان الاسماعليون يسمونها : «العميان» و « الحمير » و «عبدة الاوثان» اشارة الى تقديس الحجر الاسود والكعبة ، فلم يكن لها في حزبهم الاصطفائي مكان .

لم يعد اليوم شك في ان الانتماء للحزب الاسماعلي كان معياره ، على العموم ، طبقيا لا شعوبيا : « عندما بدأ التمايز العنصري بين العرب والموالي يزول شيئا فشيئا ويحل محله التمايز الاقتصادي بين اصحاب الامتيازات والمحرومين منهما ، اصبح الشيعة الثوريون لا يمثلون الموالي وحدهم بل اصبحوا لسان حال الطبقات المظلومة كلها . فأصبح زراد شتيو الطبقات العليا من الفرس سنة وبقوا على امتيازاتهم ، وحتى من ظل من اعضائها على زرادشتيته فانه لم يكن **أقل حقدا** من العرب على المتطرفين ، واعتنق فقراء عرب العراق وسوريا والبحرين الافكار الشيعية المتطرفة » . (برنارد لويس : اصول الاسماعلية) .

لم تقف الاديولوجيا الاسماعيلية عند حدود نقد السنة ، بل مدت سلاح نقدها الى الاسلام نفسه ثم الى جميع الاديان المنسوبة

الى السماء (١) .

الهرطقات الاسماعيلية كانت اما ملحدة واما على مشارف الالحاد تقول بالحلول والتحلل : حلول الله في امام الزمان الثائر، في الانسان ، وبالتحلل من طقوس الاسلام ، من اوامره ونواهيه، مستبدلة الوحي الالهي بنور العقل البشري ، والتعصب الديني بالتسامح الفلسفي ، وقتل الجسد بالتحاريم الطقوسية بالعودة الى ما اسماه هيجل « حالة الشعوب السعيدة » ، الشعوب اليونانية الوثنية التي كانت تمارس ، بدون شعور بالاثم ، بدون ضمير معذب ، **كل ما يلذ للنفس ويميل اليه الطبع** ، واخيرا كشفت ان سيطرة الدين هي دين السيطرة .

يمكن تكثيف البرنامج الاسماعيلي في النقاط التالية :

● الغاء الملكية الخاصة لوسائل الانتاج (الارض) وتوزيعها مجانا على الفلاحين الفقراء .

● المساواة بين الرجل والمراة مساواة كاملة . والغاء تعدد الزوجات .

● الاطاحة بالنظام السائد الزمني والروحي : اقامة دولة علمانية على انقاض الدولة الاتوقراطية التي لا يتحقق الهدف النهائي لحركتهم الا بتقويضها .

لم يكن هذا البرنامج الثوري تعبيرا عن الحد الاقصى من مطالب الموالي ، الفلاحين ، البورجوازية الصغيرة الكادحة : (اهل الصناعات والحرف) (٢) خدم المنازل ، البدو ، العمال

١ ــ كتب البغدادي : «والذي يصح عندي من دين الباطنية انهم دهرية زنادقة يقولون بقدم العالم ، وينكرون الرسل والشرائع كلها لميلهم الى استباحة ما يميل اليه الطبع» .

٢ ــ «واما حرف أهل الصناعات ، فغير فاضلة عن الاقوات ، ولا نافقة في جميع الاوقات ومعظمها معصوب بشبيبة الحياة» . (مقامات الحريري) .

والانتيلجانسيا العقلانية وحسب بل كان استباقا عبقريا لاكثر من مطلب في المشروع الثوري الشامل للبروليتاريا العربية الحديثة.

من الطبيعي ان يكون الاسماعيليون هدفا مفضلا لاضطهاد الدولة الاسلامية الوحشي التي كانوا هاجسها الاول . فقد قتل احد امراء خرسان ، في أقل من ثلاثة شهور ، : « مئة الف من الباطنية (الاسماعيلية) وبنى برؤوسهم بالري منارا اذن عليه المؤذنون » (البغدادي) .

لم يكن موقفهم من الدين وحسب بل ان برنامجهم الاجتماعي هو الذي يوغر بالحقد عليهم والذعر منهم صدور الارستوقراطيات الحاكمة . نستشف ذلك من خلال ردود رجال الدين والمؤرخين السنة عليهم : « أن اضرار الاسماعيلية على الاسلام اعظم من اضرار اليهود والنصارى والمجوس . بل اعظم من مضرة الدهرية وسائر اصناف الكفرة ، بل اعظم من ضرر الدجال الذي يظهر في آخر الزمان » (الفرق بين الفرق) .

اقصى اتهام توجهه سلطة اتوقراطية لمارق هو الدهرية (الالحاد) . فلماذا اعتبر الاسماعيلية اشد خطرا من الملحدين بل حتى من الدجال ... اذا لم يكن مشروعهم الثوري برمته لا الحادهم وحسب هو الذي يقض مضاجع الحكام وخدمهم من الفقهاء والمؤرخين . لقد وعوا أن التطرف الديني عند الشيعة الثورية يعكس تطرفها الاجتماعي .

***

ليس هناك فوارق حاسمة من حيث التركيب الاجتماعي ، الاديولوجيا او التنظيم المراتبي للحزب القرمطي (١) او الموقف من

١ ـ زعيم الحركة القرمطية الفعلي : حمدان القرمطي كان عاملا زراعيا . ابو سعيد الجنابي الذي سيصبح اول رئيس لعقدانية (مجلس الثورة)الجمهورية القرمطية كان من اصل اجتماعي متواضع ، والحسن بن سنبر كان شيخ قبيلة عربية من قبائل البحرين .

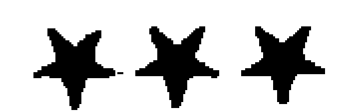
الدين بين الفرع القرمطي والاصل الاسماعيلي . لكن اهمية القرامطة تكمن في انهم شكلوا امتحانا للاديولوجيا الاسماعيلية لانهم وصلوا الى السلطة من جهة ولانهم ، من جهة أخرى ، كانوا الجناح العربي الخالص للهرطقة الاسماعيلية .

تعزو الرجعية العربية منذ قرون جميع الهرطقات الثورية الى مؤامرة شعوبية موتورة تريد أن تثأر لقوميتها ودينها من العرب ودينهم . كما لو ان الوعي العربي مطعم بالفطرة ضد المشروع الثوري الشيوعي .

هيكل « الاهرام » احد وابرز الذين ما زالوا يعزفون الى اليوم على هذا العود المتآكل . وعلى العموم تقوم دعاية الثورة المضادة العربية المعاصرة على غرغرة اسطوانة : « الافكار الهدامة مستوردة» ، «الشيوعية والالحاد غريبان عن المزاج العربي» ..

هذه البضاعة الرديئة تبور عندما تواجه بواقعة القرامطة .

لأمر ما بدأت الاقلام الاجيرة ، التي تنفق عليها السعودية والارامكو — نعم شركة الارامكو التي يهمها جدا الدفاع عن الاسلام ! — ، منذ ١٩٦٩ تتذكر القرامطة باللعنات ، تسجالهم كما لو كانوا معاصرين ، وتنبش عن مساوئهم في مزبلة «فضائح الباطنية» للغزالي . وتطبع ، على ورق مصقول وتبيع بسعر معقول، تعميمات ابن الجوزي ضدهم . لماذا؟ لان الشبح القرمطي، الذي لم يمت وانما اختفى موقتا ، عاد اكثر عددا وعدة ، ومن جديد بدأ يرود حول آبار البترول وحول القصور الساهرة قلقا .



فماذا فعلت الجمهورية القرمطية في النصف الثاني من

القرن الثالث ؟

حطت من على كاهل الجماهير فرائض الاسلام وطقوسه . وسواء صحت القصيدة التالية التي ينسبها الخزرجي للقرامطة او كانت مجرد سجال ضدهم ، فانها تعبر ، عموما ، عن وجهة المشروع القرمطي: الثورة عيد له بداية لكن ليست له نهاية :

خذي الدف يا هذي واضربي ... وغني هزاريك اثم اطربي
تولى نبي بني هاشم ... وهذا نبي بني يعرب
لكل نبي مضى شرعة ... وهذي شريعة هذا النبي :
فقد حط عنا فروض الصلاة ... وحط الصيام ولم يتعب
اذا الناس صلوا فلا تنهضي ... وان صاموا فكلي واشربي
ولا تطلبي السعي عند الصفا ... ولا زورة القبر في يثرب
ولا تمنعي النفس من معرسين ... من الاقربين او الاجنبي
.. ..
وما الخمر الا كماء السماء ... فقدست من مذهب .

جوهر المشروع القرمطي ، كجوهر كل مشروع ثوري : الانسان هو جذر الانسان نفسه . والانسان يصنع الدين والدين لا يصنع الانسان . ولهذا أنكر «الرسل والشرائع كلها» . (الفرق بين الفرق) . تأول القرامطة : «لكل ركن من اركان الشريعة تأويلا يورث تضليلا ، فزعموا ان معنى الصلاة موالاة امامهم ، والحج زيارته وادمان خدمته ، والصوم الامساك عن افشاء سرهم (...) وزعموا ان من عرف معنى العبادة سقط عنه فرضها» (الفرق...)

قضوا ايضا على الحج وطقوسه اللااقتصادية حيث تتلف ، لغير ضرورة ولغير حكمة ، كميات هائلة من الابل تصل احيانا الى خمسين الف بعير . والأبل كانت بالنسبة للنشاط الانتاجي يومئذ، بمنزلة اسرع وسائل النقل اليوم ، واللاعقلانية حيث ينحط الانسان الى ممارسة شعائر عبثية : كرمي الجمار ولثم الحجر !

ولهذا اقتلعوا الحجر الاسود وقتلوا الحجيج سنة ٣١٢ اخذاً بثأر اسراهم الذين فتك بهم المعتضد . ولما غزا ابو طاهر الكوفة في نفس العام حوّل مسجدها الى اصطبل لخيله .

بعد ان نسفوا قائمة التحاريم الدينية تركوا للانسان الذي استرد ذاته بعد ان ضيعها ان يقرر مصيره في حياته اليومية بغير حدود الا حدود حرية مماثليه في تقرير مصيرهم وحدود الممكن التاريخي الذي كان عصرئذ ، لغياب التقدم التكنولوجي ، ضيق الهامش .

استئصال الاوهام الدينية مشروط باستئصال الاوضاع الانسانية البائسة التي تحتاج الى الاوهام الدينية . لهذا مكنت السلطة القرمطية المجتمع كله من السيطرة على الثروة : الغت الخراج على الارض والضرائب التي كان يدفعها الملاك الصغار والعمال ، كوّنت التعاونيات الزراعية والحرفية ، حررت الاقنان ومنعت الرق ، الذي لم يُمنع في السعودية اسميا الا في عام ١٩٦٤ ، أممت التجارة الخارجية، الغت النقود الفضية والذهبية، ساوت المرأة بالرجل واعطتها الحق في العمل ، كضمانة مادية لاستقلالها الفعلي عن الرجل ومساواتها الحقيقية له . وباختصار فان «كل شيء ، كما يقول الرحالة الفارسي ناصر خسرو الذي عاش بينهم عاما ، كان مشاعا الا السيوف والاسلحة» .

ما انجزته الثورة القرمطية العربية في القرن العاشر للميلاد لم تنجزه الثورات البيروقراطية العسكرية العربية في القرن العشرين !

واخيرا للتذكير ، وان كانت الذكرى قلما تنفع المنظمات البيروقراطية الراهنة التي تتناسب اهميتها الاديولوجية والعملية عكسا مع عددها ، نذكر ان الثوريين القرامطة اسسوا النقابات او على الاقل حسنوا تنظيمها ، وتغلغلوا فيها بنظريتهم ومنظريهم وجعلوا منها اداة لجمع عمال الامبراطورية العربية ، لا عمال هذه العشيرة او تلك كما يفعل الماركسيون اللبنانيون العرب اليوم ،

في قوة منظمة ، واعية نظريا باهداف الحركة ومسلحة لقلب الخلافة الاسلامية وتشييد تجمع جديد من الطراز القرمطي الشيوعي على أنقاضها .

***

من الثورات الشعبية المسلحة التي لا بد من الاشارة اليها وان كانت صلتها بالاسماعيلية ليست واضحة بل ، على الارجح ، معدومة : ثورة الزنج (٢٥٥ ـ ٢٧٠ هـ) (١) .

كانت هذه الثورة حصيلة لقاء بين الإنسانية المفكرة والانسانية المتألمة ، لقاء بين قيادة محمد بن علي ، صاحب الزنج ، الذي كان حساسا لبؤس الجماهير كما كان فاقدا للامل في العثور له على مكان ـ هذا اذا افترضنا انه فكر في الامر ـ جدير بطموحه في قلب النظام الرسمي . على ان القليل الذي نقله الينا المؤرخون الرسميون من اقواله واشعاره يدل على انه كان ثوريا راديكاليا يجد تحقيق ذاته في السير على رؤوس الملوك :

وانا لتصبح اسيافنا اذا ما انتضينا ليوم سَفوك ،
منابرهن بطون الاكف واغمادهن رؤوس الملوك .

وفي دق اعناق مضطهدي العبيد والعمال. ولقاء بين جماهير الزنوج ، العمال الزراعيين ، غلمان الدباسين والتمارين ، خدم المنازل وجماهير البدو ، التي يئست من النظام القائم وملت حياة العبيد .

١ ـ للاطلاع على وقائع هذه الثورة ، اسبابها واسباب اخفاقها على القارىء الثوري ان يعود الى كتابين هامين معاصرين : ثورة الزنج (احمد العلبي) وثورة الزنج (فيصل السمرائي) ـ وهو نافل ـ والرجوع الى تاريخ الطبري ، المسعودي والمقدسي وابن ابي الحديد خاصة .

كل هذه الجموع كانت خارج دائرة المجتمع الرسمي ، كانت لا فقط بدون املاك وبدون امتيازات بل كانت محرومة حتى من لذتي البطن والفرج . كان الزنج يأكلون سويق الشعير ومحرومين جنسيا : «لم يكن الزنج ذوي زوجات واولاد بل كانوا ، على هيئة الشطار ، عزابا» . (تاريخ ابن ابي الحديد) .

اذن لم يكن يشدهم الى المجتمع القائم اي رابطة الا رابطة اثقال الحديد التي كانت توضع في ارجلهم لكي لا يفروا من جحيم العمل في كسح سباخ البصرة .

اي غرابة ، في مثل هذه الشروط ، ان يكون الزنج ، خلال المعارك ، قد اكلوا من لحوم سادتهم وأعدائهم !

اذا كان الزنج هم جمهور الثورة التي تسمت باسمهم ، فقد كان الى جانبهم ، فضلا عن الاصناف المذكورة اعلاه ، المالكون الصغار من العرب الذين انحطوا ، تحت اعباء الضرائب وبسبب الالجاء (١) الى درك اجراء شبه اقنان على ارضهم ذاتها .

من الوارد ، والمؤرخون الرسميون جازمون ، ان علي بن محمد قائد الثورة كان ملحدا او حلوليا . لكنه مع ذلك استخدم الدين تبريرا لتحريض الزنوج والعبيد على الفرار من سادتهم والالتحاق بثورته ، معلنا لهم ان الله وضع نهاية للرق بقوله : «ان الله قد اشترى من المؤمنين انفسهم وأموالهم بان لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيَقتلون ويُقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل ....» وكتب الآية على لواء حريري . لا شيء في هذه

١ ـ الالجاء : التجاء الملاك الصغار لتسجيل فتات اراضيهم باسم الملاك الكبار المتنفذين لدى الارستوقراطية الحاكمة لحماية انفسهم من عسف الجباة. لكنهم كانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار ، فالملاك الكبار يستولون فعلا على الارض، ويحولون ملاكها الى اجراء. وحين قامت ثورة الزنج كانت اراضي البصرة في حيازة عدد قليل من الملاك كان معظمهم في نفس الوقت من التجار المرابين.

الآية يفيد انهاء الرق . والاسلام ، كما هو معروف ، لم يلغ الرق. وعلي بن محمد المثقف الالمعي لا يجهل ذلك . ولهذا أول الآية «تأويلا يورث تضليلا» على النحو التالي : «بأن المؤمنين ، وقد اشتروا انفسهم ، لم يعودوا بعدُ عرضة للرق والعبودية» . «وهي لعبة ماهرة منه ، اذ يمكنه على اساس الآية ان يقول ان الزنج واسيادهم سواسية» (١) .

استخدم الدين ايضا لتبرير ضرب أعناق كبار الملاك العقاريين. فقد كان يقرأ على مسمع اسراه منهم حيثيات حكم اعدامهم : «قد اردت ان اضرب أعناقكم لما كنتم تأتون لهؤلاء الغلمان الذين استضعفتموهم ، وفعلتم بهم ما حرّم الله عليكم ان تفعلوه بهم ، وجعلتم عليهم ما لا يطيقون» (الطبري) .

لكن مع ذلك اصطدمت جماهير الزنج ، التي لا شك انها كانت في مجموعها واقعة تحت اسر الاعتقاد الغيبي ، بالدين . فالمؤرخ المللطي يروي ان الزنج احرقوا المصاحف التي كانت تقاتلهم مع سيوف سادتهم . وابن الرومي يشير في قصيدته الطويلة الى ان الزنج انتهكوا محارم الاسلام :

اي نوم بعدما انتهك الز نج محارم الاسلام !

***

هناك معاينة تكاد تعد في عداد الثوابت التاريخية لتواترها في كل العصور : حتمية اصطدام الثورة ، حتى تلك التي تنطلق في احتجاجها بصدق من الدين ، بالدين . الدين ، عموما ، احتجاج عن البؤس وتبرير له في ذات الوقت . الا انه ما ان

١ ــ «ثورة الزنج وقائدها علي بن محمد» (تأليف: احمد علبي . دار الخياة). مطبعة دار الحياة ــ بيروت .

يتجسد في مؤسسات حتى يتضاءل ثم يضمحل صوت الاحتجاج على البؤس لصالح تبريره ومحاولة ادخاله الى سريرة البائسين لكي يحملوا اغلالهم من الداخل .

الثورة التي تريد ، بماهيتها ، وضع الحياة اليومية على قدميها ، لا تستطيع الا ان تشتبك مع الدين الذي يبرر الوضع الراهن ، هذا الوضع الذي جعلت الثورة من قلبه مبرر انفجارها.

يقر الدين بضرورة وجود المراتب والطبقات العليا والسفلى «وجعلنا بعضكم فوق بعض درجات» وبضرورة الفوارق الطبقية : «وفضلنا بعضكم على بعض في الرزق» . والبديل الوحيد الذي يقدمه للدرجات الدنيا والمفضولين في الرزق هو حث الاغنياء والحكام على الاحسان اليهم والرفق بهم . بينما الهدف النهائي للثورة الاشتراكية هو انهاء استغلال الانسان للانسان وحكم طبقة لأخرى .

والدين ، اخيرا ، يعلم الطبقات المسحوقة اخلاق العبيد بحثها على الاذعان والطاعة : اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولي الامر منكم ... من ضربك على خدك الايسر فأدر له خدك الايمن ... لتلقي مزيد من الصفعات . والثورة تمرد على شروط واخلاق العبيد . ومن ثم فهي تقتص من الظلم والظالمين **الآن وهنا وفورا**. وهكذا تجد نفسها ، عن شعور منها أو عن غير شعور ، في صدام مع الدين ورجاله . لانها برفضها ارجاء الحساب ليوم الحساب ، برفضها الوعد والعزاء الدينيين ترفض وظيفة الدين وجوهره نفسه .

وللاسلام خصوصية ، بين أخرى ، تجعل اصطدامه بالثورات الراديكالية لا مفر منه : ذلك انه كان منذ ظهوره دينا ودولة. بينما في المسيحية الاصلية الكنيسة مفصولة عن الدولة . وهكذا فالمروق على الدولة ، في الاسلام ، مروق على الدين . والكفر بالخليفة كفر بالله . ولهذا كتب الموفق الى قائد ثورة الزنج يدعوه: «الى التوبة والانابة الى الله» اي **اليه** . لان سلطة الخليفة من

سلطة الله . وليس هناك حدود فاصلة بين الديني والدنيوي فقصر الخليفة له حرمة المسجد الحرام. «الملوك تحتمل كل شيء الا ثلاث خلال : افشاء السر ، والتعرض للحرم ، والقدح في الملك» . (الخليفة المنصور) .

فالدين ، مفتاح السماء الشرقية ، ليس ، مثلما هو في الغرب المسيحي ، انعكاسا للتنظيم المراتبي ، لتبرير بطش الدولة المركزية ، لاستغلال واغتصاب وقت وابداعية الطبقات المنتجة وحسب ، بل هو ايضا وخصوصا شرط انتظام المراتب واستمرار الاستغلال .

الدين يضمن الدولة بسلطان قداسته ، والدولة تضمن الدين بسلطان سيفها .

وهكذا فما ان يمتشق الثائرون السيوف في وجه الدولة الاتوقراطية حتى يتحررون ، بالنصف على الاقل من دينها ، لان سيطرتها تصبح امام وعيهم ، مهما كان جزئيا ، بدون اسرار . فهي ، بمجرد ما ان ثاروا عليها لم تعد تسيطر عليهم بقوة السماء بل بقوة السيف . والسيف بالسيف يقرع !

هكذا نفهم سر اصطدام ثورات العامة التي كانت على العموم رغم بعض الفلتات الجريئة ، واقعة تحت اسر الاعتقاد الغيبي ، بالدولة وبالدين . لكن هذا الاصطدام العفوي ، يظل ، ما لم يصبح واعيا ومنظما ، جزئيا وقابلا بالتالي للاسترداد .

في الواقع لم تكن شروط العصور الوسطى تسمح لسواد الشعب بوعي الخدعة الدينية . لم يكن التقدم العلمي والاكتشافات التيكنيكية قد وصلت الى حد جعل العلاقات بين الانسان والكون شفافة ، مفهومة او قابلة للفهم . لنتخيل المستحيل : جماهير الزنج تبعث اليوم في نفس البصرة لتشاهد القليل فيها من عجائب التكنولوجيا التي تخطت عمليا اجرأ ما كان يستطيع ساحر جريء أن يقدم عليه في الوهم : ترى ماذا سيبقى من معتقداتهم الغيبية ؟ القليل !

اذن لم يكن مستطاعا في شروط ذلك العصر الذي كان الدين: «نظريته الشاملة ، موجزه الموسوعـي ، منطقه في شكلـه الشعبي (...) سلواه وتبريره » (ماركس) ، ودرجة تقدمه المادي ان تكون الايديولوجيا الثورية في شكل دنيوي لا ديني . لانها لم تكن تستطيع التغلغل في الوعي الشعبي البسيط والسريـع التصديق الا اذا تجلت له تحت شكل ديني .

لذلك اخترعت القيادات الثورية دينا جديدا : (الايمان برسالة امام الزمان الثائر بدلا من الايمان برسالة محمد) ، يدفع العامة الى الثورة على صانعي بؤسهم في مقابل دين الدولة المعادية الذي يدعوهم الى الاذعان وارجاء العقاب والثواب الى يوم الحساب !

لكن الايديولوجيا الثورية كانت تخفي ، تحت الفاظ الموسوعة الدينية للعصر والتأويل الباطني للاسلام ، هرطقتها العميقة التي تجلت ، رغم الفاظ التقية ، في فكرها المتحرر ، في تأويلهـا ونبذها لشعائر الدين الخارجية وفي ممارساتها الثورية التي لم تكن تتقيد كثيرا ودائما بالقناع الديني: ممارسة القرامطة وممارسة قائد الحشاشين العظيم الحسن الصباح بقلعة ألموت عندما اعلن «يوم القيامة» (١) اي الغاء الشريعة الاسلامية : « الغاء الحسن الصباح للشريعة الاسلامية كان موجها ضد العناصر الاقطاعية في الارض الاسماعلية الذين كانوا مخلصين للاسلام السني ومعادين للمساواة الاجتماعية» (برنارد لويس : اصول الاسماعيلية) .

لم تكن القيادات الثورية ، الا نادرا ، تعلن الحادها الصريح ومفهومها المادي للعالم الا لكوادر الحزب الثوري ومراتبها العليـا التي آخرها الالحاد .

١ ــ أعلن الاسماعيلي العبقري ، قائد الحشيشية ، كما كانوا يسمون فـي سوريا على عهد الحروب الصليبية : الحسن الصباح في سنة ٥٥٩ «يوم القيامة» وان «التنزيل لا يؤخذ منذ الآن الا بتأويله» .

كانت، للتمويه على العدو، تستعمل التقية، اي التمويه. وتستخدم التأويل استدراجا لجماهير العوام نحو المادية المقنّعة بطلاء مثالي، مستخدمة احيانا، كما في ثورة الزنج، سلاح الاسلام ضد الارستوقراطية. لكن الارستوقراطية، بمساعدة رجال دينها، استخدمت بفاعلية أكثر سلاح الاسلام المتكيف والقابل للتكيف مع الانظمة الجلادة، استخدمته لسحق الثورة، حرق دعاتها، جماهيرها وقادتها وتقطيع ايديهم وارجلهم من خلاف، كما فعل المعتمد بيحيى بن محمد البحراني احد قادة ثورة الزنج اذ: «ضرب بين يديه مئة سوط ثم قطعت يداه ورجلاه من خلاف، ثم خبط بالسيوف ثم ذبح ثم احرق» (الطبري).

***

تحريض الدولة وائمة مساجدها ضد الحاد القيادات الثورية كان واسع النطاق. وبعض ممارسات هذه القيادات كانت، بكامل الوضوح، لا تعبر عن ايمان صادق بالاسلام. ومع ذلك فهذه القيادات كانت جماهيرية. فهل كانت هناك فئات، شكلت قاعدة ثابتة لهذه الثورات، «يستهويها، على حد قول الغزالي، الالحاد» (فضائح الباطنية)؟

نعم. على رأس هذه الفئات نجد الذين لم يقبلوا الاسلام الا بحد السيف: «الاعراب اشد كفرا ونفاقا» (آية). لان طقوسه وفروضه من زكاة وحج وطاعة اولي الامر لم تكن تتجاوب مع تقاليدهم ومصالحهم. ولهذا ما ان مات محمد حتى ارتدت قبائل البحرين التي قاتلها ابو بكر (حروب الردة). ولما ظهرت الدعوة القرمطية المضادة للطقوس تجاوب معها اعراب وفلاحو البحرين لانهم تعرفوا فيها على مطالبهم.

اما الفئة الاخرى التي يستهويها الالحاد فهي، والكلمة للغزالي، اهل الصناعات والحرف والطبقات العاملة، وهؤلاء كانوا

منتشرين في الكوفة ، عرين الحركات الثورية . بعضهم لم يكن يعتنق الاسلام عن قناعة داخلية ، عن حاجة للتعزي ، فلقد كان يجد في عقائده واساطيره ، التي قمعها الاسلام ، ملجأ اقوى للعزاء والسلوى ومحرضا . اما اعتناقه للدين الرسمي او تخليه عنه فكان يتم تبعا لمصالحه الفعلية : « والعاصي الجاهل يظن ان التلبيس بالاديان والعقائد مثل المواصلات والعقود الاختيارية فيصلها مرة بحكم المصلحة ويقطعها اخرى» ، (الرد على فضائح الباطنية). والبعض الآخر كان قادرا على اكتشاف الخدعة الدينية بنفسه وهو ما شكّل معسكر المثقفين النقديين. يشير المعري الى انقسام الناس في عصره الى معسكرين : عقلاء ملحدون وسذج متدينون: اثنان اهل الارض : ذو عقل بلا دين ... وآخر دَيّن لا عقل له . وغير محتمل ان لا يكون للمعري ، وابن الراوندي ، واخوان الصفاء قراء ومعجبون بين اهل الصناعات والحرف والعمال الواعين . وكوادر الحزب الاسماعيلي آتية منهم . لهذا يؤكد ابن الجوزي ، وكان محرضا ديماغوجيا ، ضد الالحاد ، سهولة انقياد العامة للزندقة والمبادىء الالحادية ، شاكيا من انتشار الزندقة ومن تحريض الباطنية على «سلب الاموال ونهبها» ولم يكن يجهل ان ذلك تتمة ضرورية للاطاحة بحارسها السماوي.

استهواء الالحاد لهذه الفئات وسواها واقعة لا شك فيها . لكن مما لا شك فيه ايضا انه لم يكن يستهوي الا القطاعات الاكثر استنارة من هذه الفئات. اما الجماهير الاوسع فقد ظلت مشطورة بين قناعاتها الدينية وممارساتها الثورية ضد الدولة وبالتالي ضد دينها . لان هذه الجماهير لم تكن قادرة على ان تكون امام نفسها. لماذا ؟

من جهة ، كانت عزلة الفلاحين الناتجة عن تشتتهم في اقطاعات الملاكين وضيق افقهم الناتج عن انحطاط مستواهم الثقافي الى الصفر ، يمنعانهم من اتخاذ موقف ثوري مستقل عن

موقف الدعاة الثوريين من اسماعليين او غيرهم . كما ان القمع الهمجي للدولة الشرقية يضطر المعارضة الى السرية والباطنية ، وهما تغريبان «الفلاحين الذين انتشرت بينهم الامية والشعوذة». (الطبري) ، بالاقتناع بضرورة مفسر لاسرار حياتهم ومحقق لاحلامهم في التسوية وعودة التآخي الاصلي المفقود . لهذا كان الفلاحون دائما ، كما لاحظ هيجل ، يعطون ولاءهم للزعيم لا للفكرة .

ومن جهة أخرى لم تكن هذه الجماهير بقادرة في شروط مجتمع كانت الطبيعة المجهولة تنظم انتاجه والطبقات الفاشمة تقسم موارده ، على حل الغازه الا بمساعدة مفتاح السماء (الدين) الذي لم يكن بوسع فلاح مكبل ان يهتدي لبديل ارضي له . لكن الامام المهدي يستطيع ذلك بالتأكيد !

باختصار عجز الجماهير عن انجاب قادتها من داخل صفوفها دفعها الى استيرادهم من الثوريين الاسماعليين المحترفين . اذا كان قادتها «مخلصوها» قد جاءوا اليها من خارجها ، فان المنقذ الاعلى الدائم لا بد ان يكون خارجها اي خارج البشر : إلاها تتعرف عليه وتستعين به من خلال امام الزمان المعصوم ، الذي لا يقهر لانه لا يموت ، وانما يغيب ليعود اليها كطائر السونونو مع بشائر كل ربيع : لم يكن هذا الامام المعصوم الذي لا يموت الا تعبيرا اديولوجيا عن ثورتها المعصومة التي لا تموت ، وانما تغيب بعد كل هزيمة لتعود من جديد من اجل تحقيق وعدها: ملء العالم عدلا . . .

هذا التفسير المادي ، الذي ينسف مئات الصفحات الميثالية التي كتبها المستشرقون والعرب حول مصدر فكرة الامام في الثورات الشعبية في ظل الاسلام ، نجد عليه دليلا تاريخيا : ظهور فكرة المهدي لاول مرة في الكوفة حيث اندلعت ثورة الموالي (٦٦) بقيادة المختار الفعلية ولحساب وبقيادة محمد ابن الحنفية الاديولوجية . انهزمت الثورة ، جز رأس المختار وتوفي محمد بن الحنفية . لكن الجماهير رفضت الاستسلام لهذه الهزائم الثلاث.

واعلنت ان محمدا لم يمت وانما غاب فقط ليعود مرة أخرى ليملأ الارض عدلا بعد ما ملئت جورا . وفعلا عاد في عشرات الثورات اللاحقة ، وما زال سيعود في المرة الاخيرة في الثورة الاممية القادمة .

***

كما كانت فكرة المهدي هي المحرك لمعظم الثورات الشيوعية البدائية في تاريخنا ، كانت فكرة الشيوعية محركا لنضال جماهير الفلاحين في الثورات البيروقراطية الماركسية اللينينية المعاصرة .

وكما لم يف الامام المهدي بوعده ، حتى بعد ان تحققت الدولة الفاطمية التي تنكرت ، شأن كل دولة ، لوعودها . كذلك لم يتحقق الوعد الشيوعي ، الذي اختزل الى مثل اعلى يطلب فلا يدرك ، بعد تحقيق الثورات البيروقراطية التي اعادت للفلاحين ، الذين حولتهم الى عمال ، انتاج نفس الشروط التي ثاروا عليها : البؤس الكمي والنوعي والاستبداد .

***

نادرون جدا ، أولئك الذين اكتشفوا ، في ليل تلك العصور ، ان الامام ليس خارج الارض بل عليها ، وليس خارج الانسان بل في رأسه ، وعلى رأسهم ملك الفلسفة العربية : ابو العلاء المعري: كذب الظن ، لا امام سوى العقل ، مشير في صبحه والمساء.

وليس بأقل منهم ندرة ، في ليل العصر الحديث ، الثوريون الذين اكدوا واقع ان الاشتراكية لن تنزل لأرض الطبقة العاملة من سماء قيادة أئمة من خارجها ، بل هي ستنبع من فعلها الواعي ومن قيادتها لنفسها عبر مجالسها .

كان المهدي المنتظر اسطورة ــ وككل اسطورة يعبر عن واقع فعلــــي ــ معبئة للجماهير الفلاحية وانصاف العبيـــــد ... لكنها ، في شروط الحقبة ، اسطورة لعبت دورا ثوريا لانهــــا شجعت على محاربة عالم غبي ومستبد ، لم تكن شروط تغييره الحاسم قد توفرت بعد .

اما المهدي الشيوعي المنتظر من الاحزاب البيروقراطية فهــو اسطورة كانت معبئة ، لكنها انتهت مضادة للثورة . لانها ، بين مآخذ أخرى ، عرقلة للامكانية الفعلية الراهنة لتقويض العالــــم القديم ، لانها تشويه للوعي وتخليف له . والوعي بحد ذاته قوة انتاج ثورية «الفكرة عندما تتغلغل في الجماهير تصبح قــــوة مادية» (ماركس) . واكثر لانها تجديد زائف لشباب العالم القديم ومحاولة ، نجحت موقتا في اطالة عمره .

***

بالتوازي مع ثورات العامة ، التي نقدت الانظمة القائمـــــة بالسيف ، كان هناك مفكرون عقلانيون او ماديون انتقدوا هــذه الانظمة باللسان : احدهم الفقيه الثائر غيلان الدمشقي (١) الذي حارب ايديولوجيا الجبرية ، ايديولوجيا النظام ، معترضا عليهــــا بقوله المأثور الذي تناقلته ألسنة العامة : «ايها الناس ما اتاكم من خير فمن الله وما اتاكم من شر فمن بني امية» .

خوفا من ثورة شعبية ، وكمحاولة لامتصاص نقمة العامة التي كان حساسا لها ، استجاب عمر بن عبد العزيز ، الذي كــــان كأسلافه جبريا ، لمطالب غيلان الدمشقي القدري ، ببيع متـــــاع الخلفاء الامويين في المزاد العلني . ووسط تكبير سكان دمشق

---

١ ــ قتله هشام بن عبد الملك بتهمة الالحاد . وأفتى له بقتله الفقيه الاوزاعي.

تقدم غيلان بنفسه الى نفائس القصور وهو ينادي في اهل دمشق : «تعالوا الى متاع الخونة ، تعالوا الى متاع الظلمة (...) من يلومني ممن يزعم ان هؤلاء كانوا أئمة هدى ؛ وهذا متاعهم والناس **يموتون** من الجوع !» .

والمعري الذي وضع اصبعه على الجرح عندما اكتشف في الدين سلاحا لقهر الطبقات المظلومة وترويض وعيها :

افيقوا ، افيقوا يا غواة فانما ديانتكم مكر من القدماء
ارادوا بها جمع الحطام فادركوا وماتوا وبادت سنة اللؤماء

***

اذا رجع اللبيب الى حجاه تهاون بالشرائع وازدراها

***

قد ترامت الى الفساد البرايا واستوت في الضلالة الاديان

وابن الراوندي الذي قال : «اذا كان الدين متفقا مع العقل فلا حاجة لنا به ، واذا كان مختلفا مع العقل فنحن نرفضه». واخوان الصفاء وجميع منظري الباطنية الثورية. هؤلاء شكلوا ـ يجب اليوم ان نتذكر ذلك ـ نواة ذاكرتنا العقلانية والمادية في العصور الوسطى من تاريخنا .

***

على الثوريين الشباب ، الذين انقذوا وعيهم من تشويه التجهيلية الستالينية ، أن يكونوا المنفذين المتحمسين لنصيحة انجلز للشيوعيين في المانيا ، بترجمة آثار مفكري عصر الانوار ،

الذين حاربوا ، مستعملين سلاح الفضح ، تحالف الكنيسة والاقطاع . ان يترجموا ، هم ايضا ، ديدرو ، وآثار الكاهن الملحد جان مسليي الذي كتب (١٧٧٤) : «لن تكون الانسانية سعيدة حتى تشنق آخر اقطاعي باحشاء آخر كاهن» (١) ، وان يترجموا آثار هيجل ، فوريي ، فيورباخ وأحرى آثار ماركس وانجلز حول الدين. اما نصوص لينين فقد تكفل بها الرفيق البروليتاري محمد كبه. وان يستنطقوا زيادة على ذلك اللحظات الثورية التي اضاءت ليل تاريخنا الذي ينبغي ان نعيد كتابته من جديد ، على اساس جديد ولهدف جديد : من اجل التحريض الثوري لا من اجل ارشيف التاريخ وارضاء الفضول الاكاديمي . وان يحطموا مؤامرة الصمت المضروبة على المعري وكل الفلاسفة العقلانيين والملحدين . لكن يجب ان لا ينسوا ان الاطاحة الحاسمة بالعالم القديم وفضلاته لن تكون محصلة النقد النظري لتبريره الديني والمشهدي بل ايضا وخصوصا : «بالاطاحة العملية بالعلاقات الاجتماعية العينية التي انتجت الخرافات الميثالية . ليس النقد هو القوة القائدة للتاريخ بل الثورة» (الاديولوجيا الالمانية) .

***

العالم الوحيد تقريبا الذي ما زال يتصرف بعقلية محاكم التفتيش في مسألة الدين وبعقلية الاقطاع في مسألتي الشرف والثأر ، هو العالم العربي .

١ ـ استلهم هذا الشعار الناري الشاعر بوشكين عندما كتب: «لن تكون روسيا سعيدة الا اذا شنقنا آخر قيصر باحشاء اخر كاهن» .

واستلهمته ثورة ايار ٦٨ التي انتقلت من شنق الكهنة القدامى الى شنق الكهنة الجدد : الرأسماليين والبيروقراطيين : «لن تكون الانسانية سعيدة الا اذا شنقنا آخر راسمالي باحشاء اخر بيروقراطي» .

لقد احتلت منه دولة اسرائيل (۱) في اقل من ۲۰ عاما ، وبثلاث حروب ظافرة ، اكثر من ۸٤۰۰۰ كلم مربع وما زالت ـ اذا شاءت ـ قادرة على احتلال المزيد . لكن هذا العالـــم المعلب ، والراضي بحاله ، ما زال ، بالرغم من كل ذلك ، يعتبر العرض اولى بالصيانة من الارض ، وما زال يضع شرف رجاله في فروج نسائه ، وما زال لا يتقن من انواع الثأر الا اكثرهـــــا انحطاطا : العشائري ، وما زال ، في عصر بات فيه العلم وسيلة مباشرة من وسائل الانتاج ، يعتبر الدين حكما اعلى في شؤون الفكر . والاكثر اثارة لمشاعر الفضيحة : انه ما زال يعتبر اخضاع الظاهرة الدينية للنقد التاريخي جريمة تستوجب الملاحقة والسجون !

***

في هذا المضمار ، الدولة العربية المعاصرة وريثة شرعيـــــة لتقاليد العصور الوسيطة للاستبداد العربي : امر مروان بـــن عبد الملك واليه ، خالد بن عبد الله القسري باعتقال وقتل الداعية الجعد بن درهم لانه كان يقول بخلق القرءان . نفذ الوالي . لكن كيف ؟ اوثق الجعد كتافا وحمله الى باب المسجد وارتقى المنبـــر خطيبا : «ايها الناس ، انصرفوا وضحوا تقبل الله منكم . اما انا فاني اريد ان اضحي اليوم بالمشرك الضال الجعد بن درهم لانـــه يقول ما كلم الله موسى تكليما ، ولا اتخذ الله ابراهيم خليلا ، فتعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيرا . ثم تقدم من ضحيته :

١ ـ نشرت مئات المقالات وعشرات الكتب التي لم تصادر معتبرة ان الهزيمة كانت نتيجة عدم التقيد بالاسلام . لكن لو حاول آخرون اثبات العكس فأقل ما ينتظرهم المصادرة والملاحقة !

الانسان ـ الخروف ، الجعد بن درهم فبسمل وحمدل ثم ذبحه .

***

دالت دولة بني أمية . وجاءت دولة بني العباس . واجبرت الناس على القول بخلق القرآن آمرة بقتل كل من لا ينصاع لاوامر الدولة في شؤون الدين والدنيا . فتولى الخليفة ـ الجلاد الواثق بالله ـ بنفسه قتل وصلب الفقيه احمد بن نصر بسامرا وأمر بحمل رأسه الى بغداد حيث علق في بابها الشرقي وعليه لافتة : هذا رأس المشرك الضال احمد بن نصر ممن **قتله الله** على يد عبد الله، هارون ، الامام الواثق بالله ، امير المؤمنين بعد ان اقام عليه الحجة في خلق القرآن (١) .

لكن كيف اقام عليه الحجة ؟ لنستمع الى رواية مؤرخ رسمي، الطبري :

الخليفة لأحمد بن نصر : ماذا تقول في القرآن ؟

احمد بن نصر : هو كلام الله . ولم يزد على ذلك ، كما لاحظ الطبري .

الخليفة : ماذا تقول في ربك ، اتراه يوم القيامة ؟

احمد بن نصر : يا امير المؤمنين جاءت الاخبار عن رسول الله انه قال : «ترون ربكم يوم القيامة» فنحن على الخبر .

وبعد جدال قصير افتى فقهاء الدولة ، الجالسين بين يدي الخليفة ، بقتل أحمد بن نصر لانه «كافر بالله» (٢) فقام الخليفة

١ ـ كما سيقيم القذافي الحجة على اي شاب ليبي ، يقرا البيان ، بانه الف حزبا شيوعيا ويعدمه حسب القانون !

٢ ـ في الحقيقة لانه كان كافراً بالواثق . فالطبري نفسه يروي بان اعتقال احمد بن نصر وقتله تم بعد اكتشاف الشرطة ان مظاهرة احتجاج كانت قيد الاعداد . وكان على رأس المحرضين عليها : احمد بن نصر . ولم تكن وظيفة الدين هنا الا تبرير قمع الدولة للمعارضة .

وقتله .

هكذا اقيمت الحجة على الفقيه الشهيد ! **وهكـــذا ما تزال تقـام !**

***

قتل احمد بن نصر ، وقبله وبعده عشرات ، وصلب ، رغم ان الصلب ممنوع في القرآن ، لانه لم يقتنع بموضوعة خلـــق القرآن . تماما كما ذبح الجعد بن درهم ، وقبله وبعد عشرات ، لانه اقتنع بموضوعة خلق القرآن . لان الدولة العربية الاتوقراطية دائما على حق ورعاياها دائما من محنة الى محنة ومن طاغية الى طاغية منذ ١٤ قرنا !

***

في غمرة هذا الليل الطويل الذي خيم على كل تاريخنا ، لم يعرف العالم العربي الا لحظة نادرة من الديموقراطية الشيوعية في الجمهورية القرمطية .

كيف تصرفت اول جمهورية عربية شعبية حقا حيال قضية الدين ؟ لنستمع الى الرحالة ناصر خسرو الذي زار الاحســـاء القرمطية وترك لنا شهادة حية في كتابه **سفرنامة** :

«كان الحاكم السابق ابو سعيد الجنابي قد الغى الصيـــام والصلاة . والاهالي لا يصلون ولا يصومون (...) ولما توفي ابو سعيد انتقلت السلطة الى مجلس شورى مؤلف من ٦ من تلاميذه حكموا بالعدل والانصاف (...) وليس في مدينة الاحساء مسجد ولا صلوات ولا خطب الجمعة او العيد . واهل البلاد اذا كانوا لا

يصلون فهم **لا يمنعون** احدا من الصلاة (١) . اما الحجاج السنة فقد بنوا لانفسهم مسجدا على حسابهم» .

تماما كما فعلت كومونة باريس في ١٨٧١ التـــــي ارسلت «برجال الدين الى هدوء الاديرة ليعيشـــوا فيها على صدقـــات المؤمنين ، كما كان الامر على عهد اسلافهم الرسل» (ماركس) .

***

حدث هذا قبل تسعة قرون . وكم يكون الانسان العربـــي المعاصر سعيدا لو يجد دولة عربية واحدة جمهورية او ملكية ، اشتراكية او راسمالية ، تتسامح مع الملحدين وتحريضهم المكتوب بنفس درجة تسامح الجمهورية القرمطية مع المؤمنين ودعايتهم ، ممسكة عن التدخل **البوليسي** في نقاش فكري بين تياريـــــن تاريخيين تصارعا منذ اكثر من خمسة آلاف عام ولا يزالان .

باريس ٨ ـ ٧ ـ ١٩٧٢

١ ـ هكذا يكون الدين قضية خاصة بالنسبة للدولة التي يجب ان لا تضطهد احدا من اجل دينه او من أجل الحاده... في انتظار زوال الدولة والديـــن والاضطهاد .

الاشتراكية والدين

يقوم المجتمع الحديث برمته على استغلال اقلية ضئيلة من السكان تنتمي للملاكين العقاريين والرأسماليين للسواد الاعظم من الطبقة العاملة . فهو مجتمع مالكي العبيد ، لأن العمال «الاحرار» الذين يكدحون على امتداد ايام حياتهم في خدمة الراسمال لا يمتلكون الا «حق» الحصول على وسائل العيش الضرورية جدا لبقاء العبيد ، الذين ينتجون الارباح ويؤمنون ديمومة الرق الرأسمالي ، على قيد الحياة .

القمع الاقتصادي المسلط على العمال يولّد حتما القمع السياسي تحت شتى الاشكال ، ويسبب الاذلال الاجتماعي ، توهين وتبليد الحياة الذهنية والمعنوية للجماهير . يستطيع العمال الحصول على حرية سياسية كبيرة الى هذا الحد او ذاك لكي يناضلوا من اجل تحررهم الاقتصادي الا ان اية حرية مهما كانت لن تخلصهم من البؤس ، من العطالة ، ومن الاضطهاد ، ما لم يقضوا على سلطة راس المال . الدين هو احد مظاهر القمع الروحي الذي يرهق ، دائما وفي كل مكان ، الجماهير الشعبية المسحوقة بالعمل الدائم في خدمة الغير وتحت اعباء البؤس والعزلة . الايمان بحياة اخرى افضل فيما بعد الموت يلد حتما من عجز الطبقات المظلومة في نضالها ضد ظالميها تماما كما يولد

الاعتقاد في الآلهة ، الشياطين ، وفي المعجزات من عجز الانسان الوحشي في نضاله ضد الطبيعة . فالدين يعظ أولئك الذين يكدحون طول حياتهم في البؤس بالصبر ويعلمهم الاستسلام في الدنيا ويدغدغهم بالامل في ثواب السماء . اما الذين يعيشون من عمل الآخرين ، فالدين يعظهم بالاحسان في الدنيا ، وبذلك يقدم لهم تبريرا سهلا لوجودهم كإستغلاليين ويبيع لهم ، بأرخص الاسعار ، تذاكر الدخول الى جنة النعيم في السماء. الدين افيون الشعوب . فهو ضرب من الكحول الروحي يغرق فيه عبيد الرأسمال صورتهم الانسانية ومطلبهم في حياة جديرة بالانسان.

لكن العبد ما ان يعي شرطه وينخرط في النضال من اجل انعتاقه حتى يكف ــ بنسبة النصف ــ عن كونه عبدا . ان عامل اليوم الواعي الذي كوّنته الصناعة الكبرى وثقفته المدينة يرفض باحتقار الاوهام الدينية ، يترك السماء للكهنة والبورجوازيين المنافقين وينكب على كسب حياة افضل على هذه الارض . ان البروليتاريا الحديثة تقف الى جانب الاشتراكية التي تعتمد على العلم لمحاربة ضباب الدين . وهي ، بتنظيمها العامل في نضال حقيقي هدفه تحقيق شروط حياة افضل على الارض ، تحرره من الايمان بالسماء .

ان الدين يجب ان يصبح قضية خاصة . هذا هو التعريف المألوف لموقف الاشتراكيين من الدين . انه لمهم ان نحدد بدقة مدلول هذه الكلمات تجنبا لكل سوء تفاهم . اننا نفرض ان يكون الدين قضية خاصة بالنسبة للدولة. . لكننا **لا نستطيع بشكل من الاشكال ان نعتبره قضية خاصة بالنسبة لحزبنا**(١) . على الدولة ان لا تدس انفها في قضية الدين ، والجمعيات الدينية لا ينبغي لها ان ترتبط بسلطة الدولة . لكل انسان حرية الاعتقاد بأي دين يشاء او عدم الاعتراف بأي دين من الاديان ، اي حرية ان يكون ملحدا كما هو عموما حال الاشتراكيين . ولا يجوز التسامح ابدا مع الفوارق في الحقوق المدنية المبررة بالمعتقدات الدينية . ويجب

الغاء كل اشارة لطائفة المواطن في اوراقه الرسمية . وعلى الدولة ان لا تمنح اية مساعدة مالية للكنيسة او للجمعيات الطائفية او الدينية التي يجب عليها ان تصير جمعيات مواطنين متحدين في الدين ، لكنها جمعيات متحررة تماما ومستقلة كليا امام السلطة.

ان التحقيق الكامل لهذه المطالب قادر وحده على انهاء هذا الماضي المشين والملعون حيث كانت الكنيسة مستعبدة من الدولة ، والمواطنون الروس بدورهم مستعبَدون من كنيسة الدولة ، حيث كانت قوانين محاكم التفتيش القروسطية (١) موجودة ومطبقة – وما تزال كذلك الى اليوم في قوانيننا الرسمية – ، تضطهد الاعتقاد والالحاد ، تنتهك الضمير وتخضع التقدم في الوظائف والرواتب الرسمية لتوزيع كحول هذه الكنيسة او تلك . ان فصل الكنيسة عن الدولة فصلا كاملا هو مطلب البروليتاريا الاشتراكية تجاه الدولة والكنيسة الحديثتين .

على الثورة الروسية ان تفرض تحقيق هذا المطلب الذي هو جزء لا يتجزأ وضروري من الحرية السياسية . من هذه الزاوية تجد الثورة الروسية نفسها في شروط جد مؤاتية لان النظام البيروقراطي ، الاوتوقراطي ، الاقطاعي والبوليسي المقيت قد حرّك الاستياء والهياج والنقمة في صفوف رجال الدين انفسهم. رغم ان رجال الدين الارثوذكسيين الروس كانوا تعساء جدا وجهلاء جدا الا ان ضجة سقوط العهد البائد ، عهد القرون الوسطى في روسيا ، قد ايقظتهم . ان رجال الدين انفسهم يدعمون اليوم مطلب الحرية ويعارضون البيروقراطية الرسمية والعسف الاداري

---

١ – نسبة الى القرون الوسطى . (ونلفت نظر القارىء الى ان الهوامش الملحقة بنصوص لينين اضيفت لتوضيح النص الاصلي للقارىء العربي ، وهي جميعا من وضع المحرر) . – الناشر الروسي – .

والقوادة للبوليس المفروضة على «خدام الله» . وعلينا نحن الاشتراكيين ان ندعم هذه الحركة وندفع حتى النهاية مطالب المثلين النزهاء والصادقين من رجال الدين ونتصيدهم من كلماتهم عندما يتحدثون عن الحرية ، ونطالبهم بأن يحطموا بتصميم كل رابطة بين الدين والبوليس . علينا ان نضع رجال الدين أمام هذا الخيار: اما انكم صادقون وعليكم حينئذ ان تطالبوا بالفصل الكامل بين الكنيسة والدولة وبين المدرسة والكنيسة وبجعل الدين قضية خاصة وذلك على نحو اكيد وحازم . واما انكم لا توافقون على هذه المطالبة المتماسكة بالحرية وهذا يعني انكم ما زلتم دائما اسرى التقاليد التفتيشية وما زلتم تريدون اخذ حظكم من المناصب والرواتب الرسمية ولا تؤمنون بقوة اسلحتكم الروحية ، وبانكم ما زلتم تقبلون برشاوي الدولة . وعندئذ فان عمال روسيا الواعين يعلنون عليكم حربا لا هوادة فيها .

الدين ، بالنسبة لحزب البروليتاريا الاشتراكية، ليس قضية خاصة . ان حزبنا هو جمعية مناضلين **واعين وطليعيين** يقاتلون في سبيل تحرر الطبقة العاملة . ان هذه الجمعية (الحزب) لا تستطيع ولا ينبغي لها ان تظل غير مهتمة بغياب الوعي ، بالجهل وبالتجهيل obscurantism المصطبغة بصبغة اعتقادات دينية . اننا نطالب **بالفصل** الكامل بين الكنيسة والدولة لكي نحارب الضباب الديني **باسلحة فكرية محضة** وبأسلحة فكرية فقط : صحافتنا ودعايتنا . لكن جمعيتنا ، الحزب العمالي الاشتراكي الديموقراطي الروسي ، اتخذ لنفسه منذ تأسيسه هدفا ، بين اهداف اخرى : **محاربة كل تغبية دينية للعمال.** ان صراع الافكار ليس قضية خاصة بالنسبة الينا . انه صراع يهم كل حزبنا وكل البروليتاريا .

اذا كنا كذلك فلماذا لا نعلن في برنامجنا اننا ملحدون ؟ ولماذا لا نمنع المسيحيين والمؤمنين من الدخول في حزبنا ؟

بالاجابة على هذا السؤال يتضح الفرق البالغ الاهمية بين وجهتي نظر الديموقراطية البورجوازية والاشتراكية الديموقراطية حول الدين .

ان برنامجنا قائم كليا على الفلسفة العلمية المادية الصارمة . **ولكي نشرح برنامجنا يتحتم علينا ان نشرح الجذور الحقيقية ، التاريخية والاقتصادية للضباب الديني . ان دعايتنا يجب ان تكون بالضرورة مشتملة على الدعاية للالحاد . وتحقيقا لهذه الغاية فان نشر الادبيات العلمية ، التي منعها ولاحقها بقسوة الى اليوم النظام الاوتوقراطي الاقطاعي ، يجب ان يصبح الآن مهمة من مهام حزبنا** . ربما كان علينا ان نطبق النصيحة التي اسداها انجلس يوما للاشتراكيين الالمان : ترجموا وانشروا بين الجماهير ادب القرن الثامن عشر الفرنسي الملحد والمضاد للتضليل (١) .

لكن علينا ان لا نضل ، بأي حال من الاحوال ، في متاهة التجريدات المثالية لمن يطرحون المشكل الديني طرحا « فكريا محضا» خارج الصراع الطبقي على نحو ما يفعل ذلك غالبا الديموقراطيون الراديكاليون المنحدرون من البرجوازية . من العبث الاعتقاد بأن الاوهام الدينية في مجتمع قائم على قمع وتبليد الجماهير العمالية قمعا وتبليدا لا حدود لهما ، يمكن أن تتبدد بالدعاية فقط . ان من ينسى ان القمع الديني ، المسلط على

---

١ ـ المقالة المشار اليها هي «الادب المهجري» ، حول الفلاسفة الماديين الفرنسيين ديدرو ، هولباخ ، ملفتيوس وغيرهم . اقترح انجلس في هذه المقالة أنه «ينبغي الاهتمام بأن يوزع بين جماهير العمال الادب المادي الفرنسي الممتاز الذي ينتمي الى القرن السابق والذي ما زال هو الانجاز الاعظم للروح الفرنسية سواء في الشكل ام في المضمون ، والذي ، عندما يؤخذ بعين الاعتبار مستوى العلم في ذلك الوقت ، يمتلك مضمونا ما يزال حتى اليوم على مستوى عال غير محدود وشكلا يبقى دون مثيل» . ـ الناشر الروسي ـ

الانسانية ، ليس الا نتاجا وانعكاسا للقمع الاقتصادي في المجتمع، يقيم البرهان على تفاهته البرجوازية . لن تستطيع الكتب ولا الدعاية ان تنوّر البروليتاريا اذا لم تستنير بالنضال الذي تقوده هي نفسها ضد قوى الظلام الراسمالية . ان وحدة هذا النضال الثوري فعلا، نضال الطبقة المقموعة التي تقاتل لخلق جنة الارض، يهمنا اكثر من وحدة رأي البروليتاريين حول جنة السماء .

لهذا السبب لم نعلن ولا ينبغي لنا ان نعلن في برنامجنا الحادنا . ولهذا السبب لم نمنع ولن نمنع البروليتاريين الذين احتفظوا بهذه البقايا او تلك من اوهامهم الدينية القديمة بأن يقتربوا من حزبنا. اننا دائما من انصار المفهوم العلمي للعالم . انه من الضروري ان نناضل ضد تهافت بعض «المسيحيين» ، لكن هذا لا يعني ابدا ان نضع المسألة الدينية في المقام الاول ، هذا المقام الذي لا تستحقه ، ولا ان نفرق القوى المنخرطة في النضال السياسي والاقتصادي حقا من اجل آراء من الدرجة الثالثة او من اجل اباطيل ستضيّع سريعا كل قيمة سياسية وسيلقى بها سريعا في غرفة النفايات بفعل سياق التطور الاقتصادي نفسه . ان البرجوازية الرجعية تسعى في كل مكان لتسعير الاحقاد الدينية ـ وقد بدأت تفعل ذلك عندنا ـ لكي تشغل انتباه الجماهير بهذا الجانب وتحوله عن المشاكل الاقتصادية والسياسية الجوهرية فعلا ، هذه المشاكل التي تحلها الآن البروليتاريا الروسية التي اتحدت عمليا في النضال الثوري ، ان هذه السياسة الرجعية لتفتيت القوى البروليتارية التي تجلت اليوم في برنامج المئة السود ، ربما وجدت غدا تدابير اكثر لطفا وخبثا . سنعارضها في كل الاحوال بدعاية هادئة ، صارمة وصبورة ترفض ان تثير خلافات ثانوية ، دعاية التضامن البروليتاري ودعاية المفهوم العلمي للعالم .

ستفرض البروليتاريا الثورية في النهاية على الدولة جعل الدين قضية خاصة . وفي هذا النظام السياسي المخلّص من

عفونات العصور الوسطى ستنخرط البروليتاريا في صراع واسع وصريح للقضاء على الاستعباد الاقتصادي الـــــذي هو السبب الحقيقي للتبليد الديني للانسانية .

٣ كانون اول ١٩٠٥

المؤلفات الكاملة ، المجلد ١٠

ليو تولستوي كمرآة الثورة الروسية

ان نرسم خطا يصل الفنان العظيم بالثورة التي عجز بوضوح عن فهمها ، والتي يقف من غير شك بمعزل عنها ، يمكن ان يبدو، للوهلة الاولى ، امرا غريبا ومصطنعا ، ان مرآة لا تعكس الاشياء بشكل صحيح من الصعب ان تسمى مرآة للواقع . وثورتنا ، من ناحية ثانية ، هي شيء معقد للغاية . اذ يوجد بين القسم الاكبر من أولئك الذين يصنعونها مباشرة ويشتركون فيها ، كثير من العناصر الاجتماعية التي لم تفهم ايضا بوضوح ما يجري ، والتي تقف ايضا بمعزل عن المهمات التاريخية الفعلية التي اناطها بهـــا مجرى الاحداث . واذا كنا نرى امامنا فنانا عظيما حقا ، فانه كان يجب عليه ان يعكس في آثاره ، على الاقـــل ، بعض السمات الجوهرية للثورة .

ان الصحافة الروسية الشرعية ، رغم صفحاتها التي تعـــج بالمقالات والرسائل والتعليقات حول العيد الثمانين لميلاد تولستوي، هي أقل اهتماما من الجميع بتحليل مؤلفاته من وجهة نظر ميزة الثورة الروسية وقواها المحركة . ان هذه الصحافة كلها مشبعة حتى الغثيان بالنفاق ، ونفاق من نوع مزدوج : رسمي وليبرالي . النوع الاول هو النفاق الفج للكاتب المأجور المرتشي الذي أمِـــر بالامس أن يلاحق ليو تولستوي ، وأنيطت اليوم به مهمة ان يُظهر

ان تولستوي رجل وطني ، وأن يحاول التقيد بأصول اللياقة امام اعين اوروبا . لم يعد خافيا على احد ان الكتّاب المأجورين من هذا النوع قد قبضوا ثمن خطبهم الرنانة ولذلك فهم لن يخدعوا احداً. اما النفاق الليبرالي فهو الاكثر لباقة ، ولذلك ، فهو الأكثر خطرا وخبثا . اذا استمع احد الى امثال بالاليكن (١) الكاديت في «الريتش» (٢) Cadet Balelaikins of Rech ، فانه سيظن ان عطفهم على تولستوي اكثر كمالا وحرارة. في الحقيقة، ان خطبهم المقصودة وجملهم الضخمة عن «اللاهث العظيم وراء الله» هي مزيفة من اولها الى آخرها، لانه ما من ليبرالي روسي يؤمن «بإله» تولستوي او يتعاطف مع نقد تولستوي للنظام الاجتماعي القائم . فالمنافق الليبرالي يُرفق نفسه باسم شعبي لكي يزيد رأسماله السياسي الصغير ، ليلعب دور قائد للمعارضة الوطنية . انه يحاول ، بالطبل والزمر ، ان يطمس الحاجة الى جواب مباشر وواضح على هذا السؤال : ما هو مصدر التناقضات الصارخة في «التولستويوية» ، وما هي نواقص ونقاط ضعف ثورتنا التي تعكسها تلك التناقضات ؟

ان التناقضات في مؤلفات تولستوي ، في آرائه، في مذهبه، وفي مدرسته ، هي صارخة حقا . فمن جهة ، نرى القصاص العظيم ، العبقري الذي لم يرسم لوحات لا مثيل لها من الحياة الروسية وحسب، بل ايضا اسهم بآثاره الرائعة في الادب العالمي. ومن جهة أخرى ، نرى المالك العقاري يهجس بالمسيح . من جهة، الاحتجاج الرائع في صرامته ، الصريح والصادق ، ضد النفاق

---

١ ـ بالاليكن : شخصية في «الانشودة الحديثة» لساليتكوف وهي رمز الليبرالي المتبجح ، المغامر والكذاب . ـالناشر الروسيـ

٢ ـ الريتش : المجلة المركزية للحزب الديموقراطي الدستوري (الكاديت) وهو الحزب الرئيسي للبرجوازية الملوكية الليبرالية . ـالناشر لروسيـ

والزيف الاجتماعي ، ومن جهة اخرى ، «التولستويـــوي» ، اي المتباكي المتداعي الهستيري الذي يدعى المثقف الروسي ، الذي يضرب صدره علانية ويصيح منتحبا : «اني رجل شرير سيء ، ولكني اعمل جاهدا لاصلاح نفسي ؛ لم اعد آكل اللحم ، اني آكل الآن كستلاته بالرز» . من جهـــة ، نقد لا يرحـــم للاستغلال الرأسمالي ، فضح لتعسف الحكومة ، لمهازل العدالـــــة ولادارة الدولة ؛ نزع القناع عن التناقضات العميقة بين تزايد الثـــــروة وانجازات الحضارة وتزايد بؤس ، جهل وآلام الجماهير العمالية. ومن جهة أخرى ، التقي المتصوف الذي يبشّر بالخنوع ، « لا تقاوموا الشر بالعنف» . ومن جهة ، الواقعية الابعـــــد نظرا ، تمزيق جميع الاقنعة بلا استثناء . ومن جهة اخـــرى ، التبشير بشيء من اكثر الاشياء بشاعة على الارض ، اعنـــي ، الدين ؛ التطلع الى استبدال الكهنة الموظفين لدى الدولة بكهنة مؤمنين برسالتهم ، اي ، بدعايتهم لصالح التجهيل الاكثر براعة وبالتالي الاكثر بشاعة . وحقا :

انت بائسة ، ومع ذلك انت خصبة .
انت جبارة ، ومع ذلك انت عاجزة .
يا أمنا روسيا (١) .

لقد اصبح من الواضح ، اذن ، ان تولستوي ، بسبب هذه التناقضات ، لم يتمكن من فهم لا حركة الطبقة العاملة ودورها في النضال لأجل الاشتراكية ولا الثورة الروسية . لكن التناقضات في فكر وتعاليم تولستوي ليست عَرَضية ؛ انها تعبر عن الشروط المتناقضة للحياة الروسية فيالثلث الاخير من القرنالتاسع عشر. ان الريف البطريركي ، الذي تحرر حديثا فقط من القنانة ، عُهد به ، على وجه الدقة ، الى الرأسماليين وجباة الضرائب لكـــــي

١ ـ من شعر نيكراسوف «من تطيب له الحياة في روسيا» . ـ الناشر الروسي ـ

يسلبوه وينهبوه . ان اسس الاقتصاد الفلاحي والحياة الفلاحية، وهي أسس دامت فعليا قرونا عديدة ، تحطمت الى فتات بسرعة خارقة للعادة . والتناقضات في آراء تولستوي يجب ان تُقيَّم ليس من وجهة نظر حركة الطبقة العاملة والاشتراكية المعاصرتين (مثل هذا التقييم هو ، بالطبع ، مطلوب لكنه ليس كافيا) وانما من وجهة نظر الاحتجاج ضد الراسمالية الآخذة في النمو ، ضد خراب الجماهير التي انتزعت منها اراضيها ــ احتجاج كان يجب ان يصدر عن الريف البطريركي الروسي . يبدو تولستوي مضحكا عندما يتقدم كنبي اكتشف وصفة جديدة لخلاص الانسانية ــ ولذلك فان «التولستويويين» الروس والاجانب الذين حاولوا ان يحوّلوا الجانب الاكثر ضعفا في مذهبـــه الى دوجما Dogma هم غير جديرين بان نتحدث عنهم . ان تولستوي عظيم كمعبر عن افكار ومشاعر ملايين الفلاحين الروس في وقت كانت فيـــه الثورة البرجوازية تقترب في روسيا . ان تولستوي مُبدع لان المجموع الكلي لمفاهيمه ، منظورا اليها ككل ، يعبِّر بدقة عـــن خصائص ثورتنا كثورة برجوازية **فلاحية** . من وجهة النظر هذه، التناقضات في افكار تولستوي هي ، في الحقيقة ، مرآة تعكس الشروط المتناقضة التي كان على الفلاحين ان يلعبوا ضمنها دورهم التاريخي في ثورتنا . فمن جهة ، قرون من الاضطهاد الاقطاعي وعشرات السنين من الخراب الذي ترافق مع الحقبة التاليـــة للاصلاح (١) قد راكمت جبالا من الحقد ، من الغضب ومـــن الاصرار العنيد . ان الكفاح في سبيل الاطاحة بالكنيسة الرسمية تماما ، بالملاكين العقاريين وحكومة الملاكين العقاريين ، في سبيل تحطيم جميع اشكال وعادات الملكية العقارية ، في سبيل تنظيف

---

١ ــ المقصود الحقبة التي تبعت الغاء القنانة في روسيا عام ١٨٦١ .

الارض واستبدال الدولة الطبقية البوليسية بجماعات Community تضم الفلاحين الصغار.المتساوين في الحقوق والاحرار ــ هذا الكفاح هو المفتاح لفهم كل خطوة تاريخية خطاها الفلاحون في ثورتنا ، ومن غير شك ، فان المضمون الايديولوجي لكتابات تولستوي يلتقي مع نضال الفلاحين اكثر من التقائه مع «الفوضوية المسيحية » المجردة ، كما يقيّم «نظام» مفاهيمه احيانا .

ومن جهة اخرى ، امتلك الفلاحون في نضالهم لاجل طرق جديدة في الحياة ، موقفا غير واع اطلاقا ، بطريركي ، موقف التقي الصوفي تجاه ما ينبغي ان تكونه هذه الجماعات تجاه وسائل النضال التي يمكن بها كسب الحرية ، اي قادة يتطلب ذلك النضال. كان عليهم ان يدركوا : موقف البرجوازية ومثقفيها ازاء الثورة الفلاحية ، ضرورة الاطاحة العنيفة بالسلطة القيصرية لالغاء ملكية النبلاء العقارية . ان مجمل الحياة الماضية للفلاحين علمتهم أن يكرهوا الملاك العقاري وموظف الدولة ولكنها لم تعلمهم أو بالاحرى لم تستطع أن تعلمهم أين يجب البحث عن جواب لكل هذه الاسئلة . في ثورتنا ناضلت أقلية من الفلاحين فعلا بتنظيم نفسها الى درجة معينة لاجل هذا الهدف ، واستعد قسم صغير جدا للقتال لكي يبيد اعداءه ويحطم خدام القيصر وكلاب الملاكين العقاريين . ان اكثرية الفلاحين بكت وصلت ، تفيقهت وحلمت ، كتبت عرائض الالتماس وأرسلت « المدافعين » ــ تماما كما كان يفكر ليو تولستوي !. وكما يحصل دائما في مثل هذه الحالات، كانت نتيجة هذا الامتناع التولستويوي عن السياسة ، هذا التخلي التولستويوي عن السياسة ، هذا الافتقار الى الاهتمام بالسياسة وفهمها ، أن اتبعت اقلية فقط البروليتاريا الثورية الواعية طبقيا، بينما اصبحت الاغلبية فريسة للمثقفين البرجوازيين ، اللامبدئيين والاذلاء ، الذين ، تحت اسم

الكاديت ، قفزوا بسرعة من اجتماع مع الترودوفيك (١) الى حجرة انتظار ستوليبين وتسولوا ، ساوموا ، تصالحوا ووعدوا بالتصالح ـ حتى طردوا خارجا بجزمة عسكرية ثقيلة. ان افكار تولستوي هي مرآة تعكس نقاط ضعف انتفاضتنا الفلاحية ونواقصها، انها انعكاس لخمول الريف البطريركي وللجبن العنيد عند « الموجيك النابه » .

لنتناول انتفاضات الجنود في عام ١٩٠٥ ـ ١٩٠٦ .من حيث التركيب الاجتماعي كان هؤلاء الرجال الذين قاتلوا في ثورتنا فلاحين جزئيا وبروليتاريين جزئيا . كان البروليتاريون في الاقلية ، ولذلك فان الحركة في القوى المسلحة لا تظهر حتى تقريبيا نفس التماسك على النطاق القومي ، نفس الوعي الحزبي، كما اظهرت ذلك البروليتاريا التي اصبحت اشتراكية ديموقراطية كما لو حصل ذلك بضربة عصا سحرية . ورغم ذلك ، ليس هناك ما هو اكثر خطأ من الفكرة القائلة بأن الانتفاضات في القوى المسلحة فشلت لان الضباط لم يقودوها . بل بالعكس ، فان التقدم الهائل الذي احرزته الثورة منذ ايام نارودنايا فوليا(٢)، انما برهن عليه بالضبط هو واقع ان «الماشية المفكرة» التجأت للقتال ضد رؤسائها وقد كان هذا الاعتماد على الذات من طرفها هو الذي القى الرعب في نفوس الملاكين العقاريين الليبراليين

---

١ ـ الترودوفيك : جماعة الترودوفيك من الديموقراطيين البرجوازيين الصغار، تشكلت من الفلاحين والمثقفين الشعبويين (النارودنيين) ـ نواب في الدوما . الناشر الروسي.

٢ ـ نارودنايا فوليا (ارادة الشعب) : حزب من الارهابيين الشعبويين تأسس عام ١٨٧٩ بهدف الاطاحة بالاوتوقراطية . قام الحزب ببعض الاغتيالات ضد رجال القيصر . في عام ١٨٨١ اغتال الحزب القيصر الكسندر الثاني . واستمر قائما حتى النصف الثاني من العقد التاسع . ـ الناشر الروسي.

والضباط الليبراليين . لقد تعاطف الجندي العادي تماما مع قضية الفلاحين ، اشرقت عيناه عند ذكر الارض بالذات . وقد كان هناك اكثر من حالة واحدة عندما انتقلت السلطة ، في القوى المسلحة ، الى جماهير الجنود العاديين ، لكن الاستخدام الحازم لهذه السلطة كان نادرا جدا على الاطلاق . تذبذب الجنود ، بعد بضعة ايام ، في بعض الحالات بعد ساعات قليلة ، بعد قتل قائد مكروه ، فانهم يطلقون سراح البعض ويتفاوضون مع السلطات وبعدئذ يتركون انفسهم لقمة سائغة للاعدام ، للجلد ، ويضعون اعناقهم تحت النير ـ تماما على طريقة ليو تولستوي !

لقد عكس تولستوي الحقد المتراكم واخيرا التطلع الناضج نحو مستقبل افضل ، الرغبة في التخلص من الماضي ـ وايضا الاوهام غير الناضجة ، عدم الخبرة السياسية والميوعة الثورية . ان الشروط التاريخية والاقتصادية تفسر كلا من البداية الحتمية لنضال الجماهير الثوري وعدم استعدادها للنضال ، عدم المقاومة التولستويوية للشر ، التي كانت سببا هاما جدا في هزيمة الحملة الثورية الاولى .

يقال ان الهزيمة هي أفضل مدرسة للجيوش . بالطبع يمكن مقارنة الطبقات الثورية بالجيوش فقط ضمن حدود ضيقة جدا . ان تطور الراسمالية يغير الاوضاع ساعة بساعة ، ويزيد من حدة الشروط التي دفعت ملايين الفلاحين ـ متحدين بحقدهم على الملاكين العقاريين وحكومتهم ـ الى النضال الديموقراطي الثوري. ان نمو التبادل بين الفلاحين انفسهم ، وسيطرة السوق وسلطة النقود، تقتلع اكثر فأكثر العادات البطريركية العتيقة والاديولوجيا التولستويوية البطريركية . لكن ثمة مكسب واحد من السنوات الاولى للثورة والنكسات الاولى في النضال الجماهيري الثوري ، لا يمكن أن يكون حوله اي شك . انه الضربة القاتلة التي سددت الى ميوعة الجماهير السابقة وخمولها . ان خطوط الفرز باتت اكثر وضوحا . واصبحت الطبقات والاحزاب اكثر تحددا . ليس

البروليتاريا الاشتراكية وحدها ، التي اصبحت تحت مطرقة دروس ستوليبين وبفضل التحريض العنيد المنظم من الاشتراكيين الديموقراطيين الثوريين ، اصبحت قادرة على أن ترسل حتما بمحاربين دائما اكثر حنكة واقل استعدادا للسقوط في خطيئة التولستوية التاريخية ، بل ان الجماهير الديموقراطية من الفلاحين هي الاخرى أضحت قادرة على أن تفعل نفس الشيء .

جريدة «البروليتاري» ، عدد ٣٥
١١ ايلول ، ١٩٠٨
المؤلفات الكاملة ، المجلد ١٥

موقف حزب العمال من الدين

ان خطاب النائب سيركوف Surkov الذي ألقي في الدوما (١) اثناء مناقشة ميزانية السينود (٢) Synod

١ ـ دوما الدولة : الهيئة التمثيلية التي أُجبرت الحكومة على دعوتهـا للانعقاد كنتيجة للاحداث الثورية في عام ١٩٠٥ . كانت هيئة تشريعية شكلية ، ولم تمتلك اي سلطة فعلية . كانت الانتخابات غير مباشرة ، غير متساويـة ولم تكن شاملة . كانت حقوق الطبقات العاملة والسكان غير الروس مقيـدة بقيود كثيرة وقطاع كبير من العمال والفلاحين لم يكن له حق التصويت علـى الاطلاق . تبعا للقانون الانتخابي في ١١ (٢٤) كانون اول عام ١٩٠٥ ، اصبـح صوت الملاك العقاري يساوي ٣ اصوات من البرجوازيين المدينيين ، ١٥ صوتا فلاحيا ، و٤٥ صوتا عماليا . حلت الحكومة الدوما الاول (نيسان ـ تموز ١٩٠٦) والدوما الثاني (شباط ـ حزيران ١٩٠٧) . وبعد انقلاب ٣ حزيران ١٩٠٧ ، سنت الحكومة القيصرية قانونا انتخابيا جديدا ابقى القيود على حقوق العمال، الفلاحين والبرجوازية الصغيرة وضمن سيادة الكتلة الرجعيـة من الملاكين العقاريين والرأسماليين الكبار في الدوما الثالث (١٩٠٧ـ١٩١٢) والدومـا الرابع (١٩١٢ـ١٩١٧) . ـ الناشر الروسي ـ

٢ ـ الهيئة التي تحكم الكنيسة الارثوذكسية في روسيا القيصرية .
ـ الناشر الروسي ـ

والمناقشات اللاحقة حول هذا الخطاب ، اثارت بين جماعتنا في الدوما مسألة مهمة للغاية وملحة في هذه اللحظة . لا شك ان اهتماما بكل شيء يتصل بالدين يتزايد اليوم على يد حلقات واسعة من « المجتمع » ، وقد اخترق ذلك الاهتمام صفوف المثقفين الذين يقفون على مقربة من حركة الطبقة العاملة ، فضلا عن حلقات معينة من العمال . من واجب الاشتراكية الديموقراطية المطلق أن تتدخل لاعلان وجهة نظرها في الدين .

ترتكز الاشتراكية الديموقراطية في مجمل نظرتها للعالم على الاشتراكية العلمية ، اي ، الماركسية . ان الاساس الفلسفي للماركسية ، كما اعلنه ماركس وانجلس مرارا ، هو المادية الديالكتيكية ، التي تبنت تماما التقاليد التاريخية لمادية القرن الثامن عشر في فرنسا ومادية فيورباخ (النصف الاول من القرن التاسع عشر) في المانيا — وهي مادية ، بلا جدال ، ملحدة ومناهضة باصرار لجميع الاديان. لنتذكر ان كتاب انجلس «انتي دوهرنج » ، الذي قرأ ماركس مخطوطته ، اتهم المادي الملحد دوهرنج بعدم التماسك في ماديته وبمجاملته للدين والفلسفة الدينية . لنتذكر ان انجلس ، في مقالته عن فيورباخ (١) يأخذ على هذا الاخير بانه حارب الدين لا بهدف تقويضه بل بهدف اصلاحه ، بهدف اختراع دين جديد ، «ممجد» ... وهلم جرا. ان الدين هو افيون الشعوب (٢) — هذا القول المأثور لماركس هو حجر الزاوية لمجمل وجهة النظر الماركسية حول الدين . لقد نظرت الماركسية دائما الى الاديان والكنائس وجميع المنظمات الدينية ، كأدوات بيد الرجعية البرجوازية للدفاع عن الاستغلال ولتسميم عقل الطبقة العاملة .

١ — المقصود كتاب انجلس «فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية» .

٢ — انظر «نقد فلسفة الحق عند هيجل» (دار ابن خلدون — بيروت) .

بيد ان انجلس قد ادان مرارا اولئك الذين رغبوا في أن يكونوا «اكثر يسارية» أو« اكثر ثورية » من الاشتراكيين الديموقراطيين، وأرادوا أن يدخلوا الى برنامج حزب العمال اعترافا صريحا بالالحاد باعلان الحرب على الدين . في ١٨٧٤ علق انجلس على البيان الشهير الذي اصدره لاجئو الكومونة (١) من البلانكيين المهاجرين الى لندن ، فوصف بالحماقة اعلان البيان الصاخب الحرب على الدين ، وأكد بأن مثل هذا الاعلان للحرب هو افضل الطرق لانعاش الاهتمام بالدين وللحيلولة دون انقراضه فعليا . لقد لام انجلس البلانكيين لعدم ادراكهم انالصراع الطبقي لجماهير العمال هو وحده الذي يستطيع ، بدفع اوسع فئات البروليتاريا دفعا شاملا الى **ممارسة** الفعل الاشتراكي ، الواعي والثوري ، أن يحرر فعليا الجماهير المسحوقة من نير الدين ، وبأن اعلان الحرب على الدين ، كمهمة سياسية لحزب العمال ، ليس الا جملة فوضوية (انجلس : أدب النازحين) . وفي ١٨٧٧ ، في كتابه « انتي دوهرنج » ، في الوقت الذي هاجم فيه بقوة حتى أقل تنازلات دوهرنج ـ الفيلسوف للمثالية والدين ، أدان ايضا بما لا يقل عنفا فكرة دوهرنج الثورية ـ الزائفة المطالبة بمنع الدين في المجتمع الاشتراكي . يقول انجلس ، أن نعلن مثل هذه الحرب على الدين يعني أن نصبح « بسماركيين اكثر من بسمارك » ، اي، أن نكرر حماقة نضال بسمارك ضد رجال الدين (الشعار السيء الذكر « النضال الثقافي » ، أي ، النضال الذي شنه بسمارك في السبعينات ضد الحزب الكاثوليكي الالماني ، حزب « المركز » ، بواسطة القمع البوليسي للكاثوليكية). ان بسمارك، بهذا النضال، لم يفعل شيئا سوى **توطيد** الاكليركية الكاثوليكية المناضلة ، وانزال الضرر بقضية الثقافة الفعلية ، لانه ابرز الى السطح

١ ــ المقصود كومونة باريس ١٨٧١ .

الانقسامات الدينية بدلا من الانقسامات السياسية وصرف انتباه بعض فئات الطبقة العاملة وعناصر ديموقراطية اخرى بعيدا عن المهام الجوهرية للصراع الطبقي والثوري نحو عداء الاكليركية السطحي جدأ والكاذب بشكل برجوازي جدا . وفي معرض اتهامه لدوهرنج المدعي والمفرط في الثورية بأنه يريد أن يكرر حماقة بسمارك بشكل آخر ، شدد انجلس على ان حزب العمال ينبغي له أن يمتلك القدرة على أن يعمل بصبر من اجل تنظيم البروليتاريا وتثقيفها ، هذا العمل الذي سيؤدي الى انقراض الدين ، بدلا من ان يرمي بنفسه في مخاطر الحرب السياسية على الدين . وجهة نظر انجلس هذه اصبحت تجري مجرى الدم في شرايين الاشتراكية الديموقراطية الالمانية التي ، مثلا ، دافعت عن حرية اليسوعيين وحق دخولهم الى المانيا ، وايدت تماما الغاء كل التدابير الزجرية البوليسية ضد اي دين من الاديان . « ان الدين هو قضية خاصة» : هذه النقطة الشهيرة في برنامج ايرفورت (١٨٩١) لخصت هذا التكتيك السياسي للاشتراكية الديموقراطية .

هذا التكتيك غدا منذ الآن روتينيا . لقد انتج تشويها جديدا للماركسية في الاتجاه المعاكس ، في اتجاه الانتهازية . هناك من اخذ يفسر مبادىء برنامج ايرفورت بأننا نحن الاشتراكيون الديموقراطيون ، بأن حزبنا يعتبر الدين كقضية خاصة ، بأنه بالنسبة الينا كاشتراكيين ديموقراطيين ، بالنسبة الينا كحزب اصبح الدين قضية خاصة ، ان انجلس ، دون أن يدخل في سجال مفتوح ضد وجهة النظر الانتهازية هذه ، قد اعتبر بأنه من الضروري (١٨٩٠) معارضة هذه النظرة بحزم وبشكل ايجابي لا بشكل سجالي . لنتذكر جيدا ان انجلس قد كافح بحزم وجهة النظر هذه بتصريح شدد عليه عمدا ، قائلا بأن الاشتراكية الديموقراطية تعتبر الدين قضية خاصة **بالنسبة للدولة** ، لكن ليس بالنسبة للاشتراكية الديموقراطية نفسها ، وليس بالنسبة

للماركسية ، وليس بالنسبة للحزب العمالي (١) .

هذا هو الجانب الخارجي لتاريخ اقوال ماركس وانجلز حول مسألة الدين. بالنسبة للذين يقفزون فوق الماركسية ، وبالنسبة للذين لا يستطيعون أو لا يريدون أن يفكروا ، هذا التاريخ هو عقدة من التناقضات والذبذبات الماركسية التي لا معنى لها : هو مزيج متنافر من الالحادية « المتماسكة » و« استرضاء » الدين ، هو تذبذب « لامبدئي » بين حرب ث ـ ث ـ ثورية على الله ورغبة جبانة في «تملق» العمال المتدينين،هو خوف من تنفيرهم ..الخ. يستطيع المرء أن يجد في ادبيات المنشئين الفوضويين عددا من هذه الاتهامات ضد الماركسية .

لكن اذا ما استطاع أي شخص أن يتناول الماركسية بجدية وأن يفكر مليا بمبادئها الفلسفية وبخبرة الاشتراكية الديموقراطية الاممية ، فانه سيرى حالا ان التكتيك الماركسي ازاء الدين هو متماسك كليا،ومدروس بمنتهى النضج من قبل ماركس وانجلس، وسيرى ايضا أن ما يعتبره الهواة والجهلة كتذبذب ليس هو الا استنتاجا حتميا ومباشرا من المادية الديالكتية ، وسيكون من الخطأ العميق أن يظن المرء بأن « الاعتدال » الظاهري في موقف الماركسية تجاه الدين يعود الى اعتبارات « تكتيكية » مزعومة ، الى الرغبة في « عدم التنفير » ... الخ. بالعكس ، في هذه المسألة ايضا ، يرتبط الخط السياسي للماركسية ارتباطا لا انفصام له بمبادئها الفلسفية .

ان الماركسية هي المادية . وبما انها كذلك ، فهي معادية للدين بقسوة لا رحمة فيها ، تماما مثلما كانت مادية موسوعيي القرن الثامن عشر او مادية فيورباخ . هذه قضية لا يرقى اليها الشك .

---

١ ـ يشير لينين هنا الى «مدخل» انجلس لكتاب ماركس «الحرب الاهلية في فرنسا» .

لكن المادية الديالكتيكية لماركس وانجلس تذهب أبعد من الموسوعيين ومن فيورباخ لانها تطبق الفلسفة المادية في مجال التاريخ ، في مجال العلوم الاجتماعية . ينبغي علينا أن نحارب الدين ـ هذا هو الف باء **كل** المادية ، وبالتالي الماركسية . لكن الماركسية ليست مادية تقف عند الالف باء . انها تذهب بعيدا لتقول : يجب أن نعرف كيف نحارب الدين ، ولكي نقوم بذلك يجب أن نفسر مصدر الايمان والدين بين الجماهير **بطريقة مادية** . ان محاربة الدين لا يمكن أن تقتصر على التبشير الايديولوجي المجرد ، ويجب ألا تختزل الى مثل هذا التبشير . ان هذا النضال ضد الدين يجب أن يرتبط بالممارسة الملموسة للحركة الطبقية التي تهدف الى القضاء على الجذور الاجتماعية للدين . لماذا يحتفظ الدين بسيطرته على الفئات المتخلفة من البروليتاريا المدينية ، على الفئات الواسعة من انصاف البروليتاريا، وعلى جماهير الفلاحين؟ بسبب جهل الشعب ، هكذا يجيب البرجوازي التقدمي، الراديكالي أو المادي البرجوازي . وهكذا يصرخ : « ليسقط الدين وليحيا الالحاد ، مهمتنا الاساسية هي نشر الافكار الالحادية » . ان ذلك ليس صحيحا ، انه نظرة تترجم الفكرة السطحية ، البرجوازية تماما لفعل الثقافة بواسطة نفسها . انها نظرة لا تفسر جذور الدين بعمق كاف ، انها تفسرها بطريقة مثالية وليس بطريقة مادية. في البلدان الرأسمالية الحديثة، هذه الجذور هي، بصورة رئيسية ، **اجتماعية** . ان الجذور العميقة للدين هي ، اليوم ، شروط الاضطهاد الاجتماعي الذي ينيخ بكلكله على الجماهير العمالية ، وعجزها الظاهر الكامل عن مواجهة القوى العمياء للرأسمالية ، التي ، في كل يوم وكل ساعة ، تنزل بالجماهير العادية الالم الاكثر هولا والعذاب الاشد وحشية ، بشراسة اكثر الف مرة من تلك الالام التي تسببها الحوادث الخارقة للعادة ، مثل الحروب ، الزلازل ، الخ. « الخوف صنع الآلهة » . الخوف من القوة العمياء للرأسمال ـ عمياء لان جماهير

الشعب لا يمكن أن تدرك مقدما ما تحمل معها ــ قوة تهدد بــأن تنزل وفعلا تنزل بالبروليتاري والمالك الصغير الخراب«الفجائي»، «غير المتوقع» و«العرضي»، وتسبب الخــراب ، التســول ، الانسلاخ الطبقي والبغاء والموت جوعا ــ هذه هي **جــذور** الديــن الحديث التي يجب ان يضعها المادي نصب عينيه اولا وقبل كــل شيء ، اذا كان لا يريد فعلا أن يبقى ماديا بدائيا . ليس هناك من كتاب ثقافي يستطيع أن يستأصل الدين من الجماهير المسحوقة تحت اقدام العمل الرأسمالي ، المستعبدة من القــوى المدمــرة العمياء للرأسمالية ، ما لم تتعلم هذه الجماهير بنفسها النضــال المتماسك ، المنظم ، المنهجي والواعي ضد جذور الدين هذه ، ضد **سلطة رأس المال** في جميع اشكالها .

هل يعني هذا ان الكتب الثقافية ضد الدين هي مؤذية أو غير ضرورية؟ كلا انالاستنتاج الذي يفرض نفسه علينا مختلف تماما. ذلك ان الدعاية الالحادية للاشتراكيــة الديموقراطيــة يجب **أن تخضع** لمهمتها الاساسية : تطويــر الصراع الطبقــي **للجماهير** المستغلة ضد المستغلين .

هذه الموضوعة يمكن ألا تفهم (او على الاقــل الا تفهم لاول وهلة) من قبل شخص لم يفكر مليا بمباديء المادية الديالكتيكية ، اي ، بفلسفة ماركس وانجلس . سيقول : وكيف ذلـك ؟ هــل الدعاية الايديولوجية ، التبشير بافكار محددة ، والنضال ضــد عدو الثقافة والتقدم منذ آلاف السنين (اي ، الدين) ، ستخضع للصراع الطبقي ، اي ، للصراع من اجل اهداف عملية محددة في الميدان الاقتصادي والسياسي ؟

هذا واحد من تلك الاعتراضات الرائجة التي تقال باتجــاه الماركسية والتي تشهد على سوء فهم تام للديالكتيك الماركسياني . ان التناقض الذي يحير عقول هؤلاء المعترضين هو تناقض فعــلي في الحياة الفعلية ، اي ، تناقض ديالكتيكي وليس تناقضا لفظيا ولا مفتعلا. ان نرسم خطا صارما بين الدعوة النظرية للالحاد، اي،

لتحطيم المعتقدات الدينية بين فئات معينة من البروليتاريا ، وبين نجاح الصراع الطبقي لهذه الفئات ، تقدمه وشروطـه ، يعني أن نحاكم الامور بصورة غير ديالكتيكية،يعني أن نحول حاجزاً متحركا ونسبيا الى حاجز مطلق ، يعني أن نفصل بعنف ما هو في الحياة الفعلية مرتبط ارتباطا لا فكاك فيه . لنأخذ مثلا : لنفتـرض أن البروليتاريا في منطقة معينة أو في صناعة معينـة تنقسم الى قسم متقدم من الاشتراكيين الديموقراطيين الواعين طبقيا بما فيه الكفاية والذين هم ، بالطبع ، ملحدون ، والى عمال متأخرين بما فيه الكفاية ما زالوا مرتبطين بالريف والفلاحين ، مؤمنين باللـه ، مترددين على الكنيسة ، أو حتى خاضعين للتأثير المباشر للكاهن المحلي الذي ينظم ، افتراضا ، اتحادا عماليا مسيحيا . لنفترض، ابعد من ذلك،ان الصراع الطبقي في هذه المنطقة أدى الى اضراب. على الماركسي أن يضع في المقام الاول نجاح الحركة الاضرابية ، ان يتصرف بحزم ضد انقسام العمال في هذا النضال الى ملحدين ومسيحيين ، وأن يكافح بحزم ضد هذا الانقسام . الدعاية الالحادية في مثل هذه الظروف يمكن ان تكون غير ضرورية ومؤذية ــ ليس من وجهة النظر التافهة : الخوف من افزاع الفئات المتخلفة ، من خسارة مقعد في الانتخابات ... وهلم جرا ، ولكن من وجهة نظر التقدم الفعلي للصراع الطبقي الـذي ، في شروط المجتمع الرأسمالي الحديث ، سيقـود العمـال المسيحيين الى الاشتراكية الديموقراطية والى الالحاد ، بطريقة أفضل مئة مرة من الدعاية الالحادية المجرده . أن التبشير بالالحاد ، في مثل هذه اللحظة ، وفي مثل هذه الظروف ، لن يكون سوى **خدمـة نؤديها** لذلك الكاهن ولجميع الكهنة الذين لا يتمنون شيئا أفضل من أن يستبدل انقسام العمال الى مضربـين وغـير مضربين ، بتقسيمهم الى مؤمنين وملحدين . ان الفوضوي الذي قـد يبشر بالحرب ضد الله بكل ثمن ، قد ساعد ، في الواقع ، الكهنـة والبرجوازية (كما يساعد الفوضويون دائمـا البرجوازيـة في

الممارسة) . ان الماركسي يجب ان يكون ماديا ، اي ، عدوا للدين ولكن يجب أن يكون ماديا ديالكتيكيا ، اي ، ناظرا الى النضال ضد الدين ليس بطريقة تأملية ، ليس على اساس الدعاية المجردة، النظرية المحض ، الثابتة ابدا ، وانما بطريقة ملموسة ، على اساس الصراع الطبقي الدائر فعليا الذي يثقف الجماهير اكثر وافضل من اي شيء آخر . على الماركسي ان يكون قادرا على معاينة الوضع الملموس ككل ، عليه ان يكون دائما قادرا على ايجاد نقطة توازن بين الفوضوية والانتهازية (هذا التوازن هو نسبي ، مرن ومتغير ولكنه موجود) ، أن لا يسقط لا في (ثورجية) الفوضوي المجردة ، اللفظية والفارغة عمليا ، ولا في ضيق افق وانتهازية البرجوازي الصغير أو المثقف الليبرالي الذي يقشعر بدنه من النضال ضد الدين ، ينسى ان هذه هي رسالته في هذا الميدان ، يروض نفسه على الايمان بالله ولا يستلهم مصلحة الصراع الطبقي بل حسابا خسيسا وبائسا : عدم الاساءة الى مشاعر أحد ، عدم تنفيره ، عدم افزاعه ، وحكمته في ذلك : « عش ودع الآخرين يعيشون » ، ... الخ.

من هذه الزاوية بالضبط علينا أن نحل جميع المسائل الخاصة المتعلقة بموقف الاشتراكيين الديموقراطيين تجاه الدين . مثلا ، يطرح غالبا سؤال ما اذا كان يمكن للكاهن ان يصبح عضوا في الحزب الاشتراكي الديموقراطي . ويرد عادة على هذا السؤال بايجاب قاطع ، استنادا على خبرة الاحزاب الاشتراكية الديموقراطية الاوروبية . لكن هذه الخبرة ولدت لا من تطبيق الماركسية على الحركة العمالية وحسب ، بل ايضا من الشروط التاريخية الخاصة في اوروبا الغربية ، التي هي غائبة في روسيا (وسوف نتكلم اكثر عن هذه الشروط فيما بعد) ، بحيث ان جوابا قاطعا بالايجاب هنا هو جواب خاطىء . لا يمكن أن نعلن مرة والى الابد ومهما كانت الشروط بأن الكهنة يمكن أن يكونوا اعضاء في الحزب الاشتراكي الديموقراطي ولكن لا يمكن ايضا

التوكيد على العكس . اذا اتى الينا كاهن ليشارك في عملنا السياسي المشترك ، ثم أدى مهمته في الحزب بضمير حي ، وبدون معارضة برنامج الحزب ، فمن الممكن أن يسمح له بالانضمام الى صفوف الاشتراكيين الديموقراطيين ، لان التناقض بين روح ومبادئ برنامجنا وبين قناعات الكاهن الدينية سيكون في مثل هذه الظروف أمرا يتعلق به وحده ، تناقضه الخاص . ان التنظيم السياسي لا يمكن ان يمتحن اعضاءه ليرى ما اذا كان هناك عدم تناقض بين افكارهم وبرنامج الحزب . لكن ، بالطبع ، مثل هذه الحالة لا بد لها أن تكون استثناء نادرا حتى في اوروبا الغربية ، بينما في روسيا فهي بالاحرى غير محتملة كليا . واذا انضم ، مثلا ، كاهن الى الحزب الاشتراكي الديموقراطي ، وجعل من نشر المفاهيم الدينية شغله الاول وشاغله الوحيد تقريبا ، فسيكون على الحزب ان يطرده بالضرورة من صفوفه . علينا الا نقبل فقط العمال الذين ما زالوا يحتفظون بايمانهم بالله في الحزب الاشتراكي الديموقراطي ، بل علينا أن نعمل على جذبهم اليه . اننا نعارض كليا ادنى اساءة توجه الى قناعاتهم الدينية ، ولكننا نجذبهم لكي نثقفهم بروح برنامجنا ، لا لكي يحاربوا بنشاط هذا البرنامج . اننا نسمح بحرية الرأي **داخل** الحزب ، لكن ضمن حدود معينة ، محددة بحرية الاتجاهات : اننا لسنا مجبرين على الذهاب يدا بيد مع الدعاة النشيطين لوجهات نظر تخلت عنها غالبية اعضاء الحزب .

مثل آخر . هل يجب أن ندين اعضاء الحزب الاشتراكي الديموقراطي بنفس المستوى في جميع الظروف لانهم اعلنوا ان « الاشتراكية هي ديني » ، ولانهم روجوا لمفاهيم متفقة مع هذا التصريح ؟ كلا ! ان الانحراف عن الماركسية (وبالتالي عن الاشتراكية) هو هنا أمر لا جدال فيه ، ولكن اهمية الانحراف ، اهميته النسبية ، اذا جاز القول ، يمكن ان تتباين مع الظروف عندما يخاطب محرض أو شخص الجماهير العمالية بهذه الطريقة

لكي يجعل نفسه مفهوما أفضل ، لكي يجتذبها الى موضوعه ، لكي يوضع بواقعية اكثر افكاره بتعابير مستساغة اعتادت عليها كثيرا الجماهير المتخلفة ، هذه مسألة . وانها لمسألة اخرى عندما يشرع كاتب في التبشير بـ « بناء الله » (١) ، بالاشتراكية « البناءة لله» (مثلا، بروح امثال لوناتشارسكي ومن لف لفه من الروس). بينما في الحالة الاولى ستكون الادانة الصادرة عن الحزب مجرد تنبيه أو حتى نيلا غير مناسب من حرية التحريض ، من حرية اختيار الطرق « التدريسية » **Pedagogical** فانه في الحالة الثانية ستكون الادانة ضرورية وجوهرية. ان موضوعة«الاشتراكية هي ديني » هي ، بالنسبة للبعض ، شكل انتقالي من الدين الى الاشتراكية ، وهي ، بالنسبة للبعض الآخر ، شكل انتقالي **من** الاشتراكية الى الدين .

لننتقل الآن الى الشروط التي اوجدت ، في الغرب، التفسير الانتهازي لموضوعة « الدين هو قضية خاصة » . من بين تلك الاسباب ، هناك ، بالطبع ، تأثير تلك العوامل العامة التي انتجت الانتهازية ككل ، مثل التضحية بالمصالح الاساسية لحركة الطبقة العاملة اكراما للفوائد الآنية . ان حزب البروليتاريا يطالب بأن **الدولة** ينبغي عليها ان تعلن الدين قضية خاصة ، ولكن دون أن يعتبر ، بأي حال من الاحوال ، ان النضال ضد افيون الشعوب ، ان النضال ضد الخرافات الدينية... الخ. كـ «قضية خاصة». ان الانتهازيين يشوهون هذه المسألة ليجعلوا الانسان يعتقد بأن **الحزب الاشتراكي الديموقراطي يعتبر** الدين كقضية خاصة !

لكن زيادة عن التشويه الانتهازي العادي (الـــذي لم يــتم

---

١ ـ «بناء الله» : اتجاه ايديولوجي معادي للماركسية ، نشأ بين فئة من مثقفي الحزب البلشفي بعد هزيمة ثورة ١٩٠٥ـ١٩٠٧ . وقد دافع «بناة الله»عن خلق دين جديد «اشتراكي» .

توضيحه على الاطلاق في النقاش الذي اثارته جماعتنا في الدوما عندما تناولت بالبحث الخطاب حول الدين) ، هناك ايضا شروطا تاريخية خاصة انتجت اللامبالاة الحالية المفرطة، ان صح التعبير، تجاه مسألة الدين من طرف الاشتراكيين الديموقراطيين الاوروبيين بهذه الشروط تمتلك طبيعة مزدوجة . اولا ، ان محاربة الدين هي ، تاريخيا ، مهمة البرجوازية الثورية ، التي انجزت جزءا عظيما منها (أو حاولت) انجازها في الغرب ، في حقبة ثورات ((ها)) وهجماتها على الاقطاعية وممارسات القرون الوسطى . هناك في فرنسا ، كما في المانيا ، تقليد الحرب البرجوازية على الدين التي تم خوضها قبل الاشتراكية بزمن طويل (الموسوعيون وفيورباخ) . اما في روسيا ، وفاقا لشروط ثورتنا البرجوازية الديموقراطية (١) ، فان هذه المهمة تقع ايضا بمجموعها تقريبا على اكتاف الطبقة العاملة . ان الديموقراطية البرجوازية الصغيرة (الشعبوية) في بلدنا لم تفعل كثيرا جدا في هذه الناحية (كما يظن الكاديت الجدد المئة السود (٢) او الكاديت المئة السود في «فيكهي» (٣)) ، بل بالاحرى **قليلا جدا** بالمقارنة مع ما تم في اوروبا .

من جهة اخرى ، ولد تقليد الحرب البرجوازية على الدين في

---

١ ــ سيتخلى لينين في «موضوعات نيسان» عن شعار الثورة الديموقراطية البرجوازية لينتقل لمفهوم الثورة الدائمة . ــالمترجمــ

٢ ــ المئة السود : عصابات ملوكية (نسبة الى كلمة «ملك») قيصرية شكلها البوليس القيصري لاجل مكافحة الحركة الثورية واغتيال الثوريين وتنظيم مذابح اليهود . ــالناشر الروسيــ

٣ ــ فيكهي : مجموعة مقالات دورية ، صدرت عام ١٩٠٩ على يد فرقة من الكاديت المضادين للثورة . في مقالاتها حاولت تلك الفرقة ان تشوه التقاليد الديموقراطية الثورية للحركة الليبرالية في روسيا وشكرت الحكومة القيصرية على قمعها ثورة ١٩٠٥ــ١٩٠٧ . ــالناشر الروسيــ

اوروبا تشويها برجوازيا نوعيا من قبل الفوضوية التي تختار أرضيتها ، كما فسر ذلك الماركسيون مرارا ، على اساس وجهة النظر البرجوازية للعالم ، بالرغم عن كل « سعار » هجماتها على البرجوازية . ان فوضويي وبلانكيي البلدان اللاتينية ، وموست Most (الذي كان ، بين اشياء اخرى، تلميذا لدوهرنج) ومن لف لفه في المانيا ، والفوضويون في النمسا في ١٨٨٠ وما يلي من السنين ، حملوا معهم في النضال ضد الدين جملا ثورية جوفاء الى الحد الاقصى . ليس غريبا ، اذن ، ان الاشتراكيين الديموقراطيين الاوروبيين ، بالمقارنة مع الفوضويين ، **يسيرون اليوم في الطريق المعاكس** . هذا مفهوم والى حد ما شرعي ، ولكن من الخطأ بالنسبة لنا نحن الاشتراكيون الديموقراطيون الروس أن ننسى الشروط التاريخية الخاصة بالغرب .

ثانيا ، في الغرب ، **بعد** انتهاء الثورات البرجوازية القومية ، **بعد** الاعتراف القانوني بالحرية الدينية الكاملة تقريبا ، فان مسألة النضال الديموقراطي ضد الدين قد اصبحت ، تاريخيا ، ثانوية تاركة مكانها لنضال الديموقراطية البرجوازية ضد الاشتراكية بحيث ان الحكومات البرجوازية حاولت **عن قصد** أن تصرف انتباه الجماهير عن الاشتراكية بواسطة تنظيم « هجوم » ليبرالي زائف ضد الاكليركية . وهكذا فان « النضال الثقافي » Kultur Kampf في المانيا ونضال الجمهوريين البرجوازيين ضد الاكليركية في فرنسا اكتسيا طابعا متماثلا . ان عداء الاكليركية البرجوازي كوسيلة لصرف انتباه جماهير الطبقة العاملة عن الاشتراكية ــ هذا هو ما سبق انتشار روح « اللامبالاة » الحديثة تجاه النضال ضد الدين بين الاشتراكيين الديموقراطيين في الغرب . وهذا ، مرة اخرى ، مفهوم وشرعي ، لان الاشتراكيين الديموقراطيين كان عليهم أن يعارضوا ، وهم محقون ، عداء الاكليركية البرجوازية والبسماركي **باخضاع** النضال ضد الدين للنضال من اجل الاشتراكية .

اما في روسيا فان الشروط مختلفة تماما . ان البروليتاريا هي قائدة ثورتنا البرجوازية الديموقراطية . وحزبها يجب ان يكون القائد الايديولوجي للنضال ضد جميع ممارسات القروسطية (القرون الوسطى)، بما فيها الدين الرسمي القديم وكل محاولات تجديده أو اعطائه قاعدة جديدة ، مختلفة ... الخ. ولذا ، اذا اصلح انجلس ، بالفاظ لطيفة ، انتهازية الاشتراكيين الديموقراطيين الالمان ــ الذين استعاضوا عن مطلب حزب العمال: على **الدولة** ان تعلن الدين قضية خاصة ، **باعلان** الدين قضية خاصة بالنسبة للاشتراكيين الديموقراطيين انفسهم وللحزب الاشتراكي الديموقراطي ــ فانه من الواضح ان استيراد هذا التشويه الالماني على يد الانتهازيين الروس ، كان سيستحق من انجلس ادانة اكثر صرامة **بمئة مرة** .

ان جماعتنا في الدوما ، باعلانها من منبر الدوما ان الدين هو افيون الشعب ، تصرفت بشكل صحيح تماما . وهكذا خلقت سابقة يجب أن تكون قاعدة لجميع تدخلات الاشتراكيين الديموقراطيين الروس حول مسألة الدين . هل كان ينبغي لهم أن يذهبوا أبعد ويطوروا المجادلة الالحادية بتفصيل اكبر ؟ لا نعتقد ذلك . لان ذلك ربما هدد بدفع الحزب البروليتاري الى المبالغة في النضال ضد الدين ، ولانه ربما أدى ذلك الى طمس الخط الفاصل بين النضال البرجوازي والنضال الاشتراكي ضد الدين. ان المهمة الاولى لجماعة لاشتراكيين الديموقراطيين في دوما المئة السود قد انجزت بشرف .

ان المهمة الثانية ــ التي ربما كانت اكثر أهمية بالنسبة للاشتراكيين الديموقراطيين : توضيح الدور الطبقي للكنيسة ورجال الدين في دعم الحكومة المغالية في الرجعية والبرجوازية في نضالها ضد الطبقة العاملة ، هذه المهمة انجزت هي الاخرى بشرف . بالطبع ، يمكن ان تقال اشياء كثيرة جدا حول هذا الموضوع ، والاشتراكيون الديموقراطيون سيعرفون في احاديثهم

في المستقبل كيف يكملون خطاب الرفيق سيركوف . لكن خطابه كان ممتازا ونشره من طرف كل هيئات الحزب هو الواجب المباشر لحزبنا .

اما المهمة الثالثة فقد كانت ان نوضح بدقة متناهية المعنى **الصحيح** للموضوعة التي طالما شوهها الانتهازيون الالمان : « اعلان الدين قضية خاصة». هذا ما لم يفعله للاسف الرفيق سيركوف. ومما يدعو للاسف اكثر ان مجموعتنا في الدوما لم تنتبه ، في نشاطها السابق ، للخطأ الذي ارتكبه الرفيق بيلوسوف (١) Belousov في هذه المسألة ، الخطأ الذي اشارت اليه في حينه جريدة « البروليتاري » (٢) . ان النقاش الذي جرى بين جماعتنا في الدوما يبين ان الجدال حول الالحاد حجب عنه ضرورة العرض الدقيق للمطلب الشهير القائل بأن الدين ينبغي ان يعلن قضية خاصة . لن نعزو هذا الخطأ الذي اقترفته كل مجموعتنا في الدوما للرفيق سيركوف وحده . بل بالعكس ، سنعترف صراحة بأن كل الحزب هو مسؤول عن هذا الخطأ ، لانه لم يوضح بشكل كاف هذه المسألة ولم يدخل بما فيه الكفاية الى وعي الاشتراكيين الديموقراطيين اهمية ملاحظة انجلس التي وجهها للانتهازيين الالمان . ان النقاش بين جماعتنا في الدوما يبرهن بأن المسألة لم تكن الا عدم فهم ، لا عدم رغبة في الاهتمام بمذهب ماركس ، واننا لعلى يقين من ان الخطأ سيصحح في

١ ــ يشير هذا الى خطاب بيلوسوف في الدوما حيث اقترح بان الدين «ينبغي ان يعتبر المسألة الشخصية للفرد» ــالناشر الروسيــ

٢ ــ «البروليتاري» : جريدة بلشفية غير شرعية صدرت من عام ١٩٠٦ الى ١٩٠٩ . ــالناشر الروسيــ

المداولات المستقبلية للجماعة .

اننا نكرر ان خطاب الرفيق سيركوف كان اجمالا ممتازا ، ويجب ان تروجه كل المنظمات . ان مناقشة هذا الخطاب ، بين جماعتنا في الدوما ، قد برهن على انها قد ادت واجبها الاشتراكي الديموقراطي بضمير حي . يبقى ان نعبر عن الرغبة في ان التقارير حول المناقشات بين جماعتنا في الدوما يجب ان تظهر في صحافة الحزب لكي نقرب الجماعة والحزب من بعضهما، لكي نعرف الحزب بالعمل الصعب الذي تقوم به الجماعة ولكي نؤسس الوحدة الايديولوجية بين نشاط الحزب وجماعته في الدوما .

جريدة البروليتاري ، عدد ٥)

١٣ ايار ، ١٩٠٩

المؤلفات الكاملة ، المجلد ١٥

مواقف الاحزاب والطبقات
ازاء الدين والكنيسة

ان المناقشات في الدوما حول ميزانية السينود ، ومن ثم حول اعادة الحقوق للاشخاص الذين تركوا مراتبهم الكهنوتية ، وفي النهاية حول كومونات « المؤمنين القدامى » (١) ، وضعت بين ايدينا مادة دسمة جدا تساعدنا في التعرف على مواقف الاحزاب السياسية الروسية تجاه الدين والكنيسة . لنلقي نظرة عامة على هذه الوثيقة ، متناولين بشكل رئيسي المناقشات حول ميزانية السينود (لم نتسلم بعد التقارير الحرفية للمناقشات حول المسائل الاخرى المذكورة آنفا) .

انالاستنتاج الاول والاكثر وضوحا الذي ينبثق من مناقشات الدوما هو ان الاكليركية المناضلة في روسيا لا توجد وحسب ، بل ايضا تثبت اقدامها بوضوح وتصبح اكثر تنظيما . في ١٦ نيسان صرح المطران ميتروفان Metrophane قائلا : « منذ ان

١ ـ المؤمنون القدامى : هم المعارضون الذين استقالوا من الكنيسة الارثوذكسية الروسية . ـالناشر الروسيـ

شرفنا الشعب بأصواته بات على نشاطنا البرلماني أن يستهدف هذا الهدف الدقيق: يجب هنا في الدوما أن نقف فوق الانقسامات الحزبية ، ونشكل فرقة وحيدة من رجال الدين مهمتها أن تلقي ضوءا على جميع الجوانب من وجهة نظرها الاخلاقية ... لماذا اخفقنا في بلوغ هذا الوضع المثالي ؟ ... ان العيب في ذلك يتحمله اولئك الذين يتقاسمون معكم (اي ، الكاديت «واليسار») هذه المقاعد ، اعني اولئك النواب الاكليركيين الذين ينتمون الى المعارضة . ان هؤلاء هم الذين كانوا اول من رفعوا اصواتهم وقالوا بأن مثل ذلك يعني بكل بساطة ايجاد حزب لرجال الدين ؛ وهذا ما سيكون مضرا بالغ الضرر . ومن نافلة القول اننا لا نستطيع ان نتحدث عن الاكليركية عندما نتحدث عن رجال الدين الارثوذكس الروس ، الذين لم توجد بين صفوفهم ابدا مثل هذه الاتجاهات . وفي سعينا لتشكيل فرقة مستقلة ، كنا نسعى من اجل غايات اخلاقية ومناقبية صرف ، ولكن الان ، ايها السادة (اي ، الكاديت) فانكم حملتمونا مسؤولية التقسيم والتفتيت اللذين سببهما شقاق نواب اليسار ، هذا الشقاق الذي ادخلوه على مجتمعنا المتآخي » .

ان المطران ميتروفان ، في هذا الخطاب الجدير بأمي ، أفشى سرا : ألا ترون ، ان اليسار هو المذنب في جعل بعض الكهنة في الدوما يعدلون عن تشكيل فرقة « اخلاقية » (هذا التعبير هو ملائم لخداع الناس اكثر من كلمة « اكليركي ») .

قرأ المطران ايلوجيوس Eulogius في ١٣ أيار ، بعد شهر تقريبا ، في الدوما « قرار اكليروس الدوما » : « ان الاغلبية الساحقة من اكليروس الدوما الارثوذكسي تعتبر » ... بأنه نظرا « لموقع الكنيسة الارثوذكسية المسيطر ولأسبقيتها » فانه من الضروري أن يمتلك المؤمنون القدامى حرية التبشير بايمانهم ، وحرية تشكيل جمعياتهم دون الاضطرار لطلب اذن مسبق وأن يتمتع قساوستهم بلقب الكاهن . وهكذا فمن الواضح جدا « ان

وجهة النظر الاخلاقية الصرف » للكهنة الروس تقف عارية تماما كاكليركية صرف . « ان الاغلبية الساحقة » من اكليروس الدوما، الذين تكلم باسمهم المطران ايلوجيوس ، تألفت على الارجح من ٢٩ كاهن يميني ويميني معتدل في الدوما الثالث ، ومن الممكن انها شملت ايضا ٨ كهنة ينتمون الى الاكتوبريين (١) . ومن المحتمل ان المعارضة استقبلت ٤ كهنة ينتمون الى الفرقة « التقدمية »(٢) وفرقة « التجديد السلمي » (٣) وكاهنا ينتمي الى فرقة « اللتوانيين البولنديين » .

ما هي ، اذن ، «وجهة النظر الاخلاقية والمناقبية الصرف التي تمتلكها الاغلبية الساحقة من اكليروس الدوما» (يجب ان يضيف المرء ، دوما ــ حزيران ــ الثالث) (٤) ؟ هنا مقتطفات قليلة من الخطاب : «كل ما اقوله هنا هو ان المبادرة في هذه الاصلاحات (الكنسية) يجب ان تأتي من داخل الكنيسة ، ليس من خارجها ، ليس من الدولة ، وبالطبع ليس من «لجنة الميزانية» . الكنيسة هي مؤسسة الهية وابدية ، قوانينها لا تتغير ، في حين ان المثل
ا

١ ــ الاكتوبريين : حزب ملكي من الرأسماليين الكبار تأسس في نوفمبر سنة ١٩٠٥ . دل الاسم على دعم الحزب لبيان القيصر في ١٧ اكتوبر ١٩٠٥ ، الذي وعد فيه بادخال الحريات المدنية الى روسيا . ــالناشر الروسيــ

٢ ــ التقدميين : فرقة من البرجوازية الملوكية الليبرالية الروسية . شغلوا موقفا وسطا بين الاكتوبريين والكاديت . ــالناشر الروسيــ

٣ ــ حزب التجديد السلمي : منظمة من البرجوازيين الكبار ، الصناعيين والتجاريين ، ومن مالكي الارض الكبار . ــالناشر الروسيــ

٤ ــ احدثت الحكومة في ٣ حزيران ١٩٠٧ ، انقلابا حلت به الدوما الثاني وتغير قانون الانتخابات في الدوما . دُعي الدوما الثالث الى الانعقاد في تشرين ثاني ١٩٠٧ . اختزل القانون اكثر فاكثر التمثيل القليل للعمال والفلاحين في الدوما . وكانت السيادة للمائة السود والكاديت . ــالناشر الروسيــ

العليا لحياة الدولة ، كما نعرف ، تخضع الى تعديلات متواصلة» (المطران ايلوجيوس ، ١٤ نيسان) . ان الخطيب اعاد الى الذاكرة «مقارنة تاريخية مزعجة» : تاميم الاوقاف الكنسية تحت حكم كاترين الثانية . «من يستطيع ان يجزم بان لجنة الميزانية ، التي عبرت هذه السنة عن الرغبة في وضع الموجودات المالية للكنيسة تحت سيطرة الدولة ، لن تعبّر السنة القادمة عن الرغبة في ايداعها في خزينة الدولة ومن ثم نقل ادارتها تماما من السلطات الكنسية الى السلطات المدنية او الدولوية ؟ .... تقول القوانين الكنسية طالما ان المطران هو مؤتمن على النفوس المسيحية ، وهذا ، بالاحرى ، يستوجب ائتمانه على اوقاف الكنيسة ... اليوم تقف امامكم (نواب الدوما) أمكم الروحية ، الكنيسة الارثوذكسية المقدسة ، ليس بوصفها امام ممثلين للشعب فقط ، بل ايضا بوصفها امام ابنائها الروحيين» . المرجع السابق .

ان هذا اكليركية صرف . الكنيسة تقف فوق الدولة كما يقف الابدي والالهي فوق الزمني والارضي . ان الكنيسة لا تستطيع ان تغفر للدولة تأميمها للاوقاف الكنسية . فالكنيسة تطالب بموقع قيادي ومهيمن . ان نواب الدوما هم ، في عيني الكنيسة ، ليسوا فقط — او بالاحرى اقل كثيرا — ممثلين للشعب بل «كأبناء روحيين» .

ان هؤلاء الكهنة ليسوا موظفين في جبة كاهن ، كما دعاهم الاشتراكي الديموقراطي سيركوف ، بل انهم **اقطاعيون** في جبة كاهن . الدفاع عن الامتيازات الاقطاعية للكنيسة ، الدعم الصريح للقرون الوسطى : ذلك هو جوهر السياسة التي تتبعها اغلبية اكليروس الدوما الثالث . والمطران ايلوجيوس ليس ابدا استثناء. ان جيبتسكي يزعق ايضا ضد «التأميم» الذي دعاه «إهانة» لا تطاق (١٤ نيسان) . ان الكاهن ماشكيفيتش ينفجر ضد التقرير **الاكتوبري** لانه يسعى «الى تقويض الاسس التاريخية والعرفية التي استندت عليها حياتنا الكنسية دائما ويجب ان تستمر

مستندة عليها ... لكي يحرف حياة الكنيسة الارثوذكسية الروسية ونشاطاتها عن الطريق الكهنوتي نحو طريق أخرى .... حيث يصبح على امراء الكنيسة الحقيقيين ـ المطارنة ـ ان يتخلوا لامراء هذه الدنيا الفانية عن جميع حقوقهم تقريبا ، الموروثة من الرسل . ان هذا ليس الا نيلا من ملكية الآخرين ومن حقوق وممتلكات الكنيسة .... ان المقرر يريد ان يصل الى تحطيم القاعدة الاقتصادية للحياة الكنسية ، انه يحاول ان يخضع الكنيسة الارثوذكسية وجميع وظائفها الاقتصادية للدوما ، وهي مؤسسة تتألف من اكثر العناصر تنوعا ، في بلدنا ، من عقائد دينية متسامحة وغير متسامحة معا» (١٤ نيسان) .

لقد كان الشعبويون والليبراليون الروس ، منذ زمن طويل ، يعزون انفسهم ، أو بالاحرى يخادعون انفسهم ، «بالنظرية» القائلة بانه لا يوجد في روسيا اساس للاكليركية المناضلة ، لصراع «امراء الكنيسة» مع السلطة الزمنية .. وهلم جرا . لقد بددت ثورتنا (١٩٠٥ ـ ١٩٠٧) هذا الوهم ، كما فعلت مع عدد من الاوهام الشعبوية والليبرالية الاخرى . فالاكليركية لم تظهر في وضح النهار ، طالما ظلت الاوتوقراطية عذراء لم تمس . ان الجهاز البوليسي الضخم والبيروقراطية حجبا عن انظار «المجتمع» والشعب الصراع الطبقي بشكل عام والنضال الذي شنه «الاقطاعيون في لباس الكهنة» ضد «الغوغائية الحقيرة» بشكل خاص . لكن الصدع الذي اخترقت به البروليتاريا الثورية والفلاحون النظام الاقطاعي الاوتوقراطي السائد جعل ما كان مستورا عاريا . وحالما شرعت البروليتاريا والعناصر الطليعية من البرجوازية الديموقراطية في استخدام الحرية السياسية ، حرية تنظيم الجماهير ، التي كسبت في نهاية ١٩٠٥ ، شرعت الطبقات الرجعية ايضا في محاولة للوصول الى تنظيمات مستقلة وعلنية. اذا كانت هذه الطبقات قد ظلت غير منظمة ، غير فاعلة وغير علنية ، عندما كانت الاوتوقراطية سائدة بدون منازع ، فذلك

ليس لانها (الطبقات) كانت ضعيفة ، بل لانها كانت قوية ، ليس لانها كانت عاجزة عن التنظيم والنضال السياسي ، بل لانها كانت حينئذ لم تشعر بعد باي حاجة فعلية للتنظيم الطبقي المستقل . وكانت لا تعتقد بامكانية قيام حركة جماهيرية ضد الاوتوقراطية والاقطاعيين في روسيا . لقد قدّرت ان السوط كان كافيا للاحتفاظ بالغوغاء هادئة . لكن الجروح الاولى التي أصيبت بها الاوتوقراطية اجبرت العناصر الاجتماعية التي دعمتها واحتاجتها على الخروج الى العلن . لم يعد من الممكن استخدام السوط فقط في محاربة الجماهير التي كانت قادرة على صنع أحداث ٩ كانون ثاني (١) ، الحركة الاضرابية في ١٩٠٥ ، وثورة اكتوبر – ديسمبر (٢) . اصبح من الضروري انشاء تنظيمات سياسية مستقلة . اصبح من الضروري بالنسبة «لمجلس النبلاء المتحد»(٣) ان ينظم المائة السود وينهمك في الديماغوجيا الاكثر انفلاتا، اصبح من الضروري بالنسبة «لأمراء الكنيسة» (المطارنة) ان ينظموا رجال الدين الرجعيين في قوة مستقلة .

ان ما يميز الدوما الثالث ، وفترة الثورة المضادة الروسية

---

١ – في ٩ كانون الثاني ١٩٠٥ ، قام عمال مصانع بطرسبورغ ، مع زوجاتهم واطفالهم ، بمسيرة الى القصر الشتوي ليقدموا عريضة الى القيصر تصف ظروف الاضطهاد وافتقارهم الكامل الى الحقوق . وبأمر من القيصر ، اطلق الجنود النار على العمال فقتلوا اكثر من الف شخص وجرحوا حوالي ٥ آلاف. وكرد على هذا العمل الوحشي عمت روسيا موجة من التظاهرات والاضرابات تحت شعار «لتسقط الاوتوقراطية» . كانت الثورة الروسية الاولى قد بدأت .

– الناشر الروسي –

٢ – في تشرين اول حصل اضراب سياسي شامل وفي كانون اول قامت انتفاضة مسلحة في موسكو . –الناشر الروسي–

٣ – مجلس النبلاء المتحد : منظمة مضادة للثورة من الملاكين العقاريين الاقطاعيين تأسست عام ١٩٠٥ . الناشر الروسي–

المزامنة له ، هو ، في الحقيقة ، ان هذا التنظيم للقوى الرجعية قد برز الى العلن ، قد بدأ بالنمو على نطاق قومي ضخم ، وقد تطلب «برلمانا» برجوازيا خاصا من المائة السود . لقد اظهرت الاكليركية المناضلة وجهها الحقيقي ، ومن الآن وصاعدا سيكون على الاشتراكية الديموقراطية الروسية ان تتصرف مرة بعد مرة كمراقبة للصدامات بين البرجوازية الاكليركية والبرجوازية المعادية للاكليركية ، وكمشاركة في هذه الصدامات . اذا كانت مهمتنا العامة هي ان نساعد البروليتاريا على الاتحاد في طبقة على حدة ، تكون قادرة على الاستقلال عن الديموقراطية البرجوازية ، فان احد العناصر المكوّنة لهذه المهمة هو استخدام كل وسيلة من وسائل الدعاية والتحريض ، بما فيها منبر الدوما، لكي نوضح للجماهير الاختلافات بين عداء الاكليركية البرجوازي وعداء الاكليركية البروليتاري .

ان الاكتوبريين والكاديت ، الذين تدخلوا في الدوما الثالث ضد اليمين المتطرف ، ضد رجال الدين والحكومة ، قد سهلوا لنا هذه المهمة كثيرا لانهم اظهروا بدون لبس ما هو موقف البرجوازية تجاه الدين والكنيسة. ان الصحافة الشرعيةللكاديت و«التقدميين» المزعومين تعير في الوقت الحاضر انتباها خاصا لمسألة المؤمنين القدامى ، لواقع ان الاكتوبريين فضلا عن الكاديت اتخذوا موقفا مضادا للحكومة ، ولواقع انهم ، ولو بطريقة متواضعة ، «تبنوا طريق الاصلاح» الذي وُعد به في ١٧ تشرين اول (١) . ما يهمنا كثيرا هو المبدأ الذي يتضمن في هذه المسألة ، اي ، موقف البرجوازية عموما ، بما فيه موقف العناصر التي تدّعي لقب الكاديت الديموقراطي ، تجاه الدين والكنيسة . يجب الا تفوتنا مسألة ثانوية نسبيا — ان نزاع المؤمنين القدامى مع الكنيسة

---

١ — في ١٧ تشرين اول ١٦٠٥ ، وعد القيصر تحت ضغط الثورة بدستور وحريات مدنية وذلك لم يكن الا خدعة سياسية . ــالناشر الروسيــ

السائدة ، وسلوك الاكتوبريين الذين يرتبطون بالمؤمنين القدامى ، وحتى يعتمدون عليهم ماليا (يقال ان «جولـــوس موسكفي» (١) تموّل من قِبل المؤمنين القدامى) يموهان علينا المسألة الاساسية: مسألة مصالح البرجوازية وسياستها كطبقة .

لنلقي نظرة على الخطاب الذي القاه الكونت يوفاروف Uvarov الذي ينتمي الى الاكتوبريين في افكاره العامة ، ولكنه ترك الفرقة الاكتوبرية . بعد ان انهى الاشتراكي الديموقراطـــــي سيركوف خطابه ، بدأ يوفاروف قائلا انه يرفض ان يعالج هذه المسألة من وجهة نظر المبادىء ، كما فعل نائب العمال . ان يوفاروف يهاجم افراد السينود ورئيسهم (المدير المالي) لمجرد عدم رغبتهم فـــي اعطاء الدوما اية معلومات عن بعض مداخيل الكنيسة ، وعن انفاق الاعتمادات المالية للابرشية . يتناول كامينسكي ، الناطق الرسمي بلسان الاكتوبريين ، المسألة من نفس وجهة النظر (١٦ نيسان) ، ويطالب بانـــه يجب انعاش الابرشيات «بهدف تقويـــة الايمان الارثوذكسي» . ويوســع كابوستين ، المسمى «بالاكتوبـــري اليساري» ، هذه الفكرة قائلا : «اذا التفتنا الى حياة الشعب ، الى حياة السكان القرويين ، فاننا نلاحظ ، هنا والآن ، واقعة محزنة : الحياة الدينية تتداعى ، الاساس الاعظم والوحيد لمبادىء الشعب الاخلاقية يتداعى.... بماذا سنعوض مفهوم الخطيئة(٢)؟

١ ــ جوليوس موسكفي: «صوت موسكو» ، جريدة يومية يصدرها الاكتوبريون حزب الثورة المضاد ، حزب البرجوازية الكبيرة الصناعية والملاكين العقاريين . صدرت من عام ١٩٠٥ــ١٩١٥ . ــ الناشر الروسي ــ

٢ ــ بظهور الاديان وخاصة المسيحية لم يكف الانسان ، المكبل بالاغلال ، عن التألم في حياته اليومية التي كانت واديا من الدماء والدموع ، واديا مـــن الصراع والسحق الطبقي . لقد جاء الله الى الارض في شكل انسان لا ليضع نهاية للألم في الحياة اليومية بل ليجعل الالم مبررا وبالتالي محتملا . عندما

بماذا سنعوض صوت الضمير ؟ بالتأكيد ، لا يمكن ان نعوضهما بمفهوم الصراع الطبقي ، بحقوق هذه الطبقة او تلك . ان ذلك مفهوم تراجيدي دخل في حياتنا اليومية . ولذلك ، اذا كنا نريد ان يظل الدين ، الذي هو اساس الاخلاق ، على قيد الحياة ، وأن يكون في متناول كل السكان ، فمن الضروري والواجب ان يتمتع القائمون بأمر هذا الدين بالسلطة المناسبة . . . »

ان الناطق بلسان البرجوازية المضادة للثورة يريد تقوية الدين، انه يريد تعزيز تأثير الدين على الجماهير ، لانه يدرك بان «الموظفين في جبة كاهن» غير كافين ، بل اكل الدهر عليهم وشرب ؛ انهم ايضا يضرون بالطبقات السائدة **ويسيئون** الى سلطة الكنيسة . اذا كان الاكتوبري يحارب الاكليركية المتطرفة والوصاية البوليسية،

كان ألم الانسان بدون مبرر ، كان الانسان يستطيع ان يثور عليه ليضع لــه نهاية . اما وقد اصبح مبررا فانه لا فقط اصبح قدرا بل اصبـــح فضيلة ، اصبح طريقا للخلاص من الخطيئة . ما زالت الطبقات السائدة الى الان وفي كل مكان تطبق هذه الحيلة الذهبية لجعل البؤس الكمي والنوعي في حياة الناس مقبولا . فما زالت تعلمهم انهم اذا كانوا جياعا ، حزانى ومضطهدين فجوعهـــم واحزانهم واضطهادهم ليست بدون مبرر . فهم بذلك يضحون في سبيل وطنهم ودولتهم وكرامة امتهم الى آخر مسبحة مبررات التضحية . روح المسيحية هي انالانسانلا يستطيع الخلاص منالالم ، بل الاسوأ من ذلكهو ان الالم الذيسببه انقسام مجتمع المساواة الاول الى طبقات ، هو ألم غير مبرر ، ولذا لا بد من الثورة للقضاء عليه بالقضاء على انقسام المجتمع الى طبقات ، وبالعودة بشكل ارقى الى مجتمع المساواة الاول . تدخلت المسيحية لتجعل هذا الالم ضريبـة محتومة لنيل مملكة السماء . ان فكرة الخطيئة الاصلية ، فكرة السقوط تعكس، في المجتمع الزراعي ، سقوط المزارع الحر نسبيا الى مرتبة العبيد . لقد كف عن كونه مالكا ليصبح انعكاسا منحطا للمالك . هذا السقوط من مرتبة المالكين الى مرتبة العبيد هو القاعدة المادية للمفهوم الديني للخطيئة . ــالمترجمــ

فذلك لكي يقوّي تأثير الكنيسة على الجماهير ، لكي يقضي ، على الاقل ، على بعض الوسائل المستخدمة في تخبيل الشعب ، هذه الوسائل التي اصبحت فظة جدا ، عتيقة جدا ، قاصرة جدا عن بلوغ هدفها ، ويستبدلها بوسائل اكثر براعة واتقانا . ان الدين البوليسي لم يعد كافيا لتبليد الجماهير : اعطونا دينا اكثر تجددا ، اقل فظاظة ، اكثر مرونة ، دينا يكون فعالا في ابرشية تحكم ذاتها بذاتها ــ ذلك هو ما يطلبه الراسمال من الاوتوقراطية.

وكارالوف الكاديتي يؤيد تماما نفس وجهة النظر هذه . ان هذا المرتد «الليبرالي» (الذي «ارتقى» تدريجيا من النارودنايا فوليا الى الجناح اليميني من الكاديت) يعوي محتجا «ضد» تجريد الكنيسة من صفتها القومية ، اي ، ضــد كون جماهير الشعب ، سواد الناس، قد انتزعت منها كل امكانية للاشتراك في تنظيم الكنيسة». انه يجد «مرعبا» (حرفيا !) كون الجماهير بدأت «تفقد الايمان». انه يصرخ عاليا ، تماما بأسلوب مينشيكوف ، لان «القيمة الهائلة الصميمية للكنيسة قد انخفضت... وهذا ما يسبب ضررا عظيما لا لقضية الكنيسة وحسب ، بل ايضا لقضية الدولة» . انه يعلن مثل المتعصب ايلوجيوس الذي تحدث «بكلمات من ذهب» عندما زعم ، بنفاق فظيع بأن «مهمة الكنيسة ابدية ، لا تتغير . لذلك ، ليس من الممكن ان نربط الكنيسة بالسياسة» . واذا كان يحتج ضد تحالف الكنيسة مع المائة السود ، فذلك لانه يرغب ان يرى الكنيسة «اكثر قوة واكثر مجدا ، وقادرة على تأدية مهمتهـــا العظيمة والمقدسة بروح مسيحية من الحب والحرية» .

ان الرفيق بيلوسوف فعل حسنا عندما استهزأ من منبـــر الدوما بهذه «الكلمات الغنائية» لكارالوف . لكن مثل هذه السخرية اقل كثيرا من ان تكون كافية . كان يجب ان يوضح ــ وهذا ما يجب ان يتم عند اول فرصة مناسبة من منبر الدوما ــ بأن وجهة نظر الكاديت متماثلة تماما مع وجهة نظر الاكتوبريين ، وتعبر فقط عن رغبات الراسماليين «المتطورين» في استخدام وسائل خداع

كنسية اكثر براعة من وسائل الكهنة الروس قديما، لحقن الشعب بأفيون الدين .

لكي يظل الشعب رازحا تحت نير العبودية الروحية ، يجب ان تتحالف تحالفا وثيقا الكنيسة والمئة السود ، هذا هو رأي « الاقطاعي المتوحش » والديرجموردين (١) القدامى ، الذي اعلنه بوريشكيفتش . انتم مخطئون ، ايها السادة ، ، اجابت البرجوازية المضادة للثورة من خلال الناطق بلسانها كارالوف : بمثل هذه الطرق ستجعلون الشعب ينصرف نهائيا عن الدين . يجب ان نتصرف بذكاء اكثر ، بمكر وبراعة اكثر : لنقضي على المئة السود الفظين جدا والاغبياء جدا ، لنعلن الحرب على «تجريد الكنيسة من صفتها القومية» ، ولنحفر على رايتنا «الكلمات الذهبية» للمطران ايلوجيوس التي تؤكد بأن الكنيسة تقف فوق السياسة . بهذه الطريقة فقط سنكون قادرين على ان نضلل ، على الاقل ، جزءا من العمال المتخلفين وخاصة من البرجوازيين الصغار والفلاحين ، وسنكون قادرين على مساعدة الكنيسة المتجددة في تأدية «مهمتها العظيمة والمقدسة» التي تقتضي استبقاء الجماهير تحت نير العبودية الروحية .

ان الصحافة الليبرالية ، بما في ذلك جريدة «الريتش» ، ركزت مؤخرا على تقريع ستروفه ومن لف لفه بسبب تعاونهم مع نشرة «فيكهي» . لكن كارالوف ، الناطق الرسمي بلسان الكاديت في الدوما ، احسن صنعا عندما فضح نفاق هذه الاعتراضات القذر وهذه الاتهامات . ان ستروفه لم يفعل شيئا غير انه قال بصوت عال ما يفكر به كارالوف وميليوكوف في سريرتيهما . لقد لام الليبراليون ستروفه فقط لانه افشى الحقيقة بطيش ولانه كشف عن نواياه بطريقة صريحة جدا . ان

١ ـ ديرجيموردا: هو اسم اصبح علما على الحمق والبلادة. ـ الناشر الروسي ـ

الليبراليين الذين يقرعون «فيكهي» ويستمرون في دعـــم حزب الكاديت يخدعون الناس بوقاحة ـ انهم يدينون نصا لانه كشاف ومعلن بطيش ، لكنهم يواصلون بالضبط **ممارسة** مضمون هــذا **النص** بالذات .

هناك قليل من الحديث عن سلوك الترودوفيك في الدومـــا اثناء مناقشة المسائل التي نستعرضها . كما هي الحال دوما . كشف فرقبارز بين الترودوفيك الفلاحين والترودوفيكالمثقفين. وهذا الفرق ليس لصالح هؤلاء الآخرين المستعديـــن دوما للهاث وراء الكاديت . من غير شك ، ان روجكوف ، المزارع الموجيك ، كشف في خطابه عن افتقاره التام الى الوعي السياسي : لقـــد اكتفى بترديد تفاهات الكاديت القائلـــــة بأن « اتحاد الشعب الروسي» (٢) سيساهم لا في تعزيز الايمان بل في اضعافه .

انه لم يكن قادرا على اقتراح اي برنامج . لكن بالعكس ، فما ان بدأ يقول بسذاجة كل الحقيقة بدون تزيين عن الضرائب التي يجمعها رجال الدين ، عن ابتزازاتهم وعن مطالبهم بمناسبة عقـد الزفاف «بزجاجة من الفودكا ، بالطعام، برطل من الشـاي، والذين يطالبون **احيانا باشياء لا اجرؤ على التحدث عنها من هذا المنبر»**. هذا فضلا عنالاموال التي يطلبونها (١٦ نيسان ، التقرير الحرفي، ص ٢٢٥٩) ـ كان هذا اكثر مما يستطيع دوما المئـة السود ان يتحمله . فانطلقت صيحة مسعورة من مقاعد اليمين . «هــــذه فضيحة ، هذا عار» ، هكذا صرخ المئة السود ، مدركين ان هذا الخطاب البسيط الذي القاه الفلاح حول الابتزازات ، وادرج فيه قائمة الاشياء «المجانية» التي تطلب مقابل الطقوس الدينية ، كان من المرجح كثيرا ان يثوّر الجماهير اكثر من اي كمية من البيانات النظرية او التكتيكية المعادية للدين وللكنيسة . مارست عندئذ

---

١ ـ تنظيم ملوكي للمئة السود . ـالناشر الروسي ـ

عصابة داعمي الرجعية التي تدافع عن الاوتوقراطية في الدومـــا الثالث ، الضغوط على خادمهـــا ـ رئيس الدوما ميين دورف وأجبرتـــه على سحب الكلمة مـــن روجكوف (احتـــج الاشتراكيون الديموقراطيون ، مـــع بعض الترودوفيـــك : الكاديت وآخرون ، ضد هذا التصرف) .

لقد كان الخطاب الذي القاه روجكوف بسيطا للغاية ، الا انه قدم برهانا ممتازا على الهاوية التي تفصل بين الدفاع الرجعي : المنافق والمقصود عن الدين من قِبَل الكاديت ، وبين التديـــن البدائي ، اللاواعي ، الروتيني للفلاح ، الذي ، نظـــرا لشروط حياته نفسها ، فان الابتزازات المستفزة قد خلقت عنده ، دون ان يريد ذلك ودون ان يقرأ له حسابا ، ضغينة ثورية فعلا واستعدادا للقتال الحازم ضد القرون الوسطى . ان الكاديت هم ممثلـــو البرجوازية المضادة للثورة ، التي تصمم على احياء وتقوية الدين ضد الشعب. ان الروجكوفيين هم ممثلو الديموقراطية البرجوازية الثورية غير المتطورة ، المسحوقة ، المفتقرة للوعـــي وللمبادرة السياسية ـ ولكنها تحتوي على احتياطي لا ينضب له معين من الطاقة الثورية للنضال ضـــد الملاكين العقاريين ، والكهنـــة ، والاوتوقراطية .

ان روزانوف ، مثقف من الترودفيك ، اقترب من الكاديت بصورةغير واعية اقل بكثير من روجكوف. لقد استطاع روزانوف أن يتحدث عن فصل «الكنيسة عن الدولة» ، الـــذي هو مطلب «اليسار» ، ولكنه لم يستطع ان يمسك عن استخدام العبارات الرجعية البرجوازية الصغيرة حول «اصلاح القانون الانتخابـــي الذي يرمي الى استبعاد رجال الدين من الاشتراك السياسي» .

ان الروح الثورية ، التي تجد منفذا عفويا عند موجيـــك متوسط ونموذجي ما ان يبدأ يقول الحقيقة عن حياته اليومية ، تتلاشى عند مثقف ترودوفيكي لتحل محلها عبارات ضبابيةواحيانا كريهة فعلا . للمرة المئة او الالف نجد برهانا اضافيا لتأكيـــد

الحقيقة التالية : فقـــط اذا اتبعت جماهير الفلاحين قيـــادة البروليتاريا ، فانها تكون قادرة على الاطاحة بالنير القاتل والمستبد الذي يمارسه الملاكون العقاريون الاقطاعيون، الاقطاعيون في لباس الكهنة ، وأنصار الاوتوقراطية الاقطاعيون .

ان الاشتراكي الديموقراطي سيركوف ، الذي يمثل حـزب العمال والطبقة العاملة ، كان الشخص الوحيد في الدوما الـذي رفع المناقشات الى صعيد مبدئي فعلا ، وقال بدون ان يحوم حول الموضوع ما هو موقف البروليتاريا تجاه الدين والكنيسة ، ومـا يجب أن يكون عليه موقف جميــــع الديموقراطيين المتماسكين والاقوياء تجاه هذه المسألة ـ «الدين هو افيون الشعب ... ولا يجب دفع مليم واحد من نقود الشعب الى هؤلاء ، اعداء الشعب، الذين يخدرون وعي الشعب» . ـ صرخة الحرب هذه الشجاعة التي لا لبس فيها، والتي اطلقها اشتراكي دوّت مثل التحدي لدوما المائة السود ، واستجاب لها ملايين من البروليتاريين الذيـــن سينشرونها بين الجماهير والذين سيعرفون في الإبّان كيـــف يترجمونها الى نشاط ثوري .

«الاشتراكي الديموقراطي» ، عدد ٦
٤ حزيران ، ١٩٠٩
المؤلفات الكاملة ، المجلد ١٥

الى ا. م. غوركي

عزيزي الكسي مكسيموفيتش ،

ماذا حدث لك ؟ ببساطة انه حقا لرهيب !

البارحة قرأت ردك في «الريتش» على «العويل» الذي أقيم حول دوستوفسكي (١) وكنت على اتم استعداد لان أسر به ، ولكني اليوم حصلت على الجريدة التصفوية حيث **نشرت هناك فقرة من مقالتك** لم تكن موجودة في «الريتش» .

وهي التالية :

«لكن يجب مؤقتا» (مؤقتا ، لا غير ؟) «إرجاء «البحث عن الله» . انه انشغال لا فائدة منه : ليس للمرء أن يبحث في مكان لم يضع فيه شيئا . ان من لم يزرع ، لا يحصد . انك لا تمتلك إله ، «فما زلت» (زلت !) «لم تخلقه» . ان الآلهة لا يبحث عنها ، بل **تخلق** . الحياة لا تخترع ، بل تخلق» .

يتضح من ذلك انك ضد «البحث عن الله» مؤقتا !

وانك ضد «البحث عن الله» فقط لانك تريد أن تستبدله بصنع الله !

---

١ ـ يشير لينين الى احتجاج غوركي في صحيفة «راسكايامسل» ضد اخراج رواية دوستوفسكي الرجعية «الممسوسون» في مسرح فن موسكو . لقد امتدحت الصحافة الرجعية هذه الرواية . ـ الناشر الروسي ـ

اليس رهيبا ان **تحدث** لك مثل هذه الاشياء ؟

«البحث عن الله» لا يختلف عن صنع الله او خلق الله .. الخ بمثقال ذرة اكثر مما يختلف شيطان اصفر عن آخر ازرق . أن تتكلم عن «البحث عن الله»، ليس لكي تعارض كل انواع الشياطين والآلهة ، كل انواع النيكروفيليا (٢) Necrophilia الايديولوجية (كل إله هو ضلال ، هو نيكروفيليا ، حتى لو كان من بين اكثر الآلهة نظافة ومثالية ؛ الإله الذي يصنع فضلا عن الاله الذي يبحث عنه ، ذلك لا يغير من الامر شيئا) ، ولكن تفضيلا للشيطان الازرق على الاصفر ، لهو اسوأ مئة مرة من ان لا تقول شيئا على الاطلاق .

في البلدان الديموقراطية ، في البلدان حيث سيكون تماما في غير محله ان تحتكم «الى الديموقراطية ، الى الشعب ، الى الناس ، وإلى العلم» ، في مثل هذه البلدان (سويسرا ، اميركا ، الخ) تبلد اذهان الشعب والعمال بحماسة خاصة بالضبط بفضل فكرة اله نظوف ، مفعم بالروحانية ، يهدي للتي هي احسن . ان كل فكرة دينية ، اي فكرة عن اي معبود ، حتى اي غنج مع إله ما، هي افساد لا مثيل له ،تتقبله البرجوازية **الديموقراطية** بتسامح خاص (وحتى غالبا باستحسان ايضا) . ولذلك ، فهو الافساد الاكثر خطرا ، «العدوى» الاكثر بشاعة ، ان مليونا من الخطايا **الجسدية**، البذاءات ، اعمال العنف والعدوى ، يفضحها الجمهور بسهولة فائقة جدا ، وبالتالي فهي اقل خطرا من الفكرة البارعة، الروحية عن الإلة الذي تحلى باكثر الحلى «الايديولوجية» جمالا . ان الكاهن الكاثوليكي الذي يفتض الصبايا (ذلك ما قرأته مؤخرا بالصدفة في جريدة المانية) هو **اقل** خطرا بالنسبة«للديموقراطية» من كاهن بدون لباس كاهن ، كاهن لا يحمل دينا فظا ، كاهن

---

٢ ـ نيكروفيليا : الولع بأكل الجثث . ـالمترجمـ

ديموقراطي يحمل ايديولوجيا ويبشر بصنع إله او خلقه . من السهولة بمكان نزع قناع الكاهن الاول ، ادانته وطرده ، لكننا **لا نستطيع** طرد الثاني بنفس البساطة ؛ ان نزع قناعه لأصعب الف مرة ، وليس هناك من تافه ضيق الافق «هش ويرتعش بصورة يرثى لها» سيوافق على «ادانته» .

وانت ، الذي تعرف «الهشاشة والارتعاش الذي يرثى له» عند الروح **البرجوازية الصغيرة** (الروسية ؟ لماذا الروسية ؟ هل الايطالية افضل ؟) ، تبلبل تلك الروح بسم اكثر حلاوة ، واكثر تغليفا بالحلوى وبكل انواع الاوراق الملونة الجميلة .

حقا انه لرهيب .

«كفاية من هذا التحقير الذاتي الذي هو عندنا بديل للنقد الذاتي» .

لكن اليس صنع إله هو اكثر انواع التحقير الذاتي شرا ؟ كل شخص يشغل نفسه بصنع **إله** ، او حتى يسلم بمثل هذا الصنع لله ، يبصق في وجهه هو بأسوأ طريقة ممكنة ، ذلك انه بدلا عن «الافعال» ينهمك بالتحديد في التأمل الذاتي ، العبادة الذاتية ، وبهذه المناسبة فان مثل هذا الشخص «يتأمل» الملامح الاكثر قذارة، الاكثر بلادة والاكثر مذلة للانا التي الهها عبر صنعه لإله .

اذا حكمنا من وجهة النظر الاجتماعية وليس الشخصية ، فان كل صنع لإله يمثل بالضبط **التأمل الذاتي المحبوب** من الطبقة الوسطى البلهاء ، من العقول الهشة الضيقة ، انه التحقير الذاتي الحالم عند التافهين الضيقي الافق والبرجوازيين الصغار ، «اليائسين والمنهكين» (كما طاب لك ان تقول بصدق تام عن **الروح** – الا انه ما كان ينبغي لك ان تقول الروسية ، بل **البرجوازية الصغيرة**، سواء كانت يهودية ام ايطالية ام انجليزية، فهي كلها سواسية . في كل مكان ، الطبقة الوسطى الحقيرة بليدة وبشعة بنفس الدرجة ، و«الطبقة الوسطى الديموقراطية» المولعة بالنيكروفيليا الايديولوجية فهي ، بشكل خاص ، بليدة وبشعة) .

كلما تعمقت في مقالك باحثا عن مصدر **زلة قلمك** ، بقيت مرتبكا . فما عساه يكون ؟ بقايا من «الاعتراف» الذي لم توافق عليه **انت نفسك** ؟ اصداء منه ؟

او هل هو شيء ما آخر ؟ مثلا ، هل هي محاولة غير ناجحة ان تنحط الى مستوى **وجهة النظر الديموقراطية العامة** بدلا عن **وجهة النظر البروليتارية** ؟ ربما اردت ان تزازأ (١) مع «الديموقراطية بشكل عام» كما يفعل المرء عادة مع الاطفال ؟ ربما اردت ، «ببيان شعبي من اجل **الجمهور** ، ان تتبنى للحظة اوهام **((ه))** او **اوهامه** (الجمهور) ؟

لكنه اسلوب ، من اي النواحي اتيته ، خاطىء ! لقد قلت في البداية انه سيكون تماما في غير محله ان يحتكم كاتب بروليتاري في البلدان الديموقراطية «الى الديموقراطية ، الى الشعب ، الى الناس والى العلم» . وعندنا في روسيا ؟ مثل هذا الاحتكام ليس تماما في محله لانه يطري ايضا بطريقة ما اوهام الجمهور . ان الاحتكام الى الجماهير عام جدا حتى ليصبح سديميا ــ في روسيا حتى ازجوييف « راسكاياميل » يبصم **بأصابعه العشرة** على مثل هذه الاشياء . لماذا تتبنى شعارات تستطيع انت ، بالتأكيد ، تمييزها تماما عن شعارات إزجوييف ، لكن **القارىء** لا يستطيع تمييزها ؟ لماذا تشوش القارىء بعبارات وجمل عن الديموقراطية بدلا من ان تميز **بوضوح بين البرجوازي الصغير** (الهش ، المرتعش بصورة يرثى لها ، المنهك ، اليائس ، المتأمل لذاته ، المتأمل لله ، الصانع لله ، المقدس لله ، المحقر لذاته ، المتفوضض anarchistic بتخبط ــ يا لها من كلمة رائعة !!... الخ) وبين البروليتاري (قادر على ان يظل مستيقظا ليس في الكلمات وحدها ، قادر على ان يميز «علم ومجتمع»

---

١ ــ زازا : نطق حرف «ج» زايا .

البرجوازية عن علمه ومجتمعه ، والديموقراطية البرجوازية عن الديموقراطية البروليتارية) ؟

لماذا فعلت هذا ؟

انه لمؤسف وشنيع .

صديقك ف.أ

ملاحظة : لقد ارسلت لك رواية مسجلة ، فهل استلمتها ؟

عالج نفسك بجدية ؛ افعل ــ لكي تستطيع السفر في الشتاء **بدون ان تأخذ بردا** (وهو خطر في الشتاء) .

صديقك ف. اوليانوف

كتبت في منتصف تشرين ثاني ، ١٩١٢

المؤلفات الكاملة ، المجلد٣٥

الى ا. م. غوركي

حول مسألة الإله والالهـــي وكل شيء يرتبـــط بهما انت متناقض ـ انه نفس التناقض الذي ابرزته لك في احاديثنا اثناء لقائنا الاخير في كابري : لقد انفصلت او يبدو انك انفصلت عن فرقة «فيبريود» (١) بدون حتى ان تلاحظ المبادىء الايديولوجية لتلك الفرقة .

الآن نفس الشيء مرة ثانيـــة . انت « محزون » ، انت « لا تستطيع ان تفهم كيف ان كلمة «مؤقتا» قد انزلقت» ـ ذلك هو ما تكتب ـ وفي نفس الوقت تدافع عن فكرة الإله وصنع الاله .

«الله هو مجموعة من الافكار ، اعدتها القبيلـــــة ، الامة ، الانسانية ؛ افكار توقظ وتنظم المشاعر الاجتماعية بهدف ربـــط

---

١ ـ فرقة «فيبريود» : تنظمت عام ١٩٠٩ على يد بوجدانوف والكسينسكي ، وهما بلشفيان سابقان انتقلا الى موقع الانتهازية اليسارية . شملت الفرقـــة «الاتزوفستيين» (من الكلمة الروسية «اتزفات» وتعني : يستدعي) اللذين عارضوا عمل الحزب في المنظمات الشرعية وطالبوا باستدعـــاء النواب الاشتراكيين الديموقراطيين من الدوما . انتمت فرقة «بناة الله» ايضا الى «فيبريود» . استمرت قائمة حتى عام ١٩١٣ . ـ الناشر الروسي ـ

الفرد بالمجتمع وترويض الفردية الحيوانية» .

هذه النظرية ترتبط بوضوح بنظرية او نظريات بوجدانوف ولونا تشارسكي .

وهي كاذبة بوضوح ورجعية بوضوح . تماما مثل الاشتراكيين المسيحيين (اسوأ انواع «الاشتراكية» وأسوأ تشويه لها) تستخدم انت طرقا تكرر (بالرغم عن افضل نواياك) مراوغات الكهنوت ـ انت تنزع من فكرة الإله **مضمونها التاريخي واليومي** (القذارة، الاوهام، تقديس الجهل والقمع الروحي من جهة ، وتقديس القنانة والملوكية من جهة أخرى) ، وفي نفس الوقت ، في مكان الواقع التاريخي واليومي ، أدخلت في فكره الإله جملة برجوازية صغيرة لطيفة (الله = «افكار توقظ وتنظم المشاعر الاجتماعية») .

تريد بهذه الطريقة ان تتكلم عن «الصلاح واللطف» ، أن تشير الى «الحقيقة والعدالة» ... وهلم جرا . ومهما يكن ، فان هذه النية الطيبة من جانبك ، تبقى نيتك وحدك ، «رغبة بريئة» ذاتية. عندما كتبتها ذهبت الى **الجماهير ، واهميتها** . لم تتحدد بنواياك الطيبة ولكن **بالعلاقات بين القوى الاجتماعية** ، بالعلاقات الطبقية الموضوعية . وبسبب من هذه العلاقات **حدث** (رغم ارادتك وباستقلال عن وعيك) انك جمّلت وحليت فكرة رجال الدين ، البوريشكيفيين (٢) ، نيقولاس الثاني ، الستروفيين ، لان فكرة الله تساعدهم **في الممارسة** على الابقاء على الشعب مستعبَدا ، بتجميلك فكرة الله ، جمّلت السلاسل التي تقيد العمال والفلاحين

٢ ـ نسبة الى بوريشكيفتش المالك العقاري الكبير ، الملوكي ، زعيم المئة السود . نال شهرته بخطاباته المعادية للسامية في الدوما . ستروفه : اقتصادي وصحافي برجوازي ، أحد اعضاء حزب الكاديت . ـ الناشر الروسي ـ

الجهلة (١) . وهكذا سيقول الكهنة ومن لف لفهم يا لها من فكرة مدهشة وعميقة (فكرة الله) ، وهـذا نفس ما يعترف به «رؤسائكم» ، ايها السادة الديموقراطيون ، ونحن (الكهنة ومن على شاكلتهم) نخدم تلك الفكرة .

ليس صحيحا ان الله هو مجموعة من الافكار توقظ وتنظم

١ ـ يختلف النقد الماركسي للدين ، جذريا ، من النقد البرجوازي للدين. النقد البرجوازي للدين يستخدم ضده سلاح الفضيحة ويكتفي بتحطيم اغلال الدين لكي يحمل الانسان اغلاله بمهانة ، لكي يظل شقاؤه ارضيا . فهو نقد سلبي ، اما النقد الماركسي فهو ثوري وايجابي يستخدم سلاح الصراع الطبقي. وقد حدده ماركس في هذا المقطع الرائع : «ان استئصال الدين ، باعتباره سعادة وهمية للشعوب ، هو شرط سعادتها الحقيقية . ان تتخلى الشعوب عن اوهام وضعها يتطلب تخليها عن وضع يحتاج الى أوهام . فنقد الدين هو بالقوة ، نقد هذا النهر من الدموع المكلل بالدين .

«لقد عرى النقد الاغلال من الزهور الخيالية التي كانت تغطيها ، لا لكي يحمل الانسان اغلاله بمهانة ، بل لكي يحطم الاغلال ويجني الزهور اليانعة . نقد الدين يقضي على اوهام الانسان لكي يستطيع التفكير ، والحركة وصنع واقعه باعتباره انسانا بلا اوهام بلغ سن الرشد ، ولكي يدور حول ذاته ، حول شمسه الحقيقية . فالدين ليس سوى شمس وهمية تدور حول الانسان ما دام الانسان لا يدور حول ذاته .

«فمن مهام التاريخ ، اذن ، بعد اختفاء عالم الحقيقة العلوي ، ان يقيم حقيقة هذا العالم السفلي . ومهمة الفلسفة الاساسية ـ هذه الفلسفة التي هي في خدمة التاريخ (الفلسفة النقدية ، المترجمون) ـ هي ان تزيل قناع الاستلاب الذاتي auto-alienation للانسان في اشكاله الدنيوية ، بعد ان تكون قد انتزعت شكله الديني . وهكذا يتحول نقد السماء الى نقد للارض، ونقد الدين الى نقد للحق ، ونقد اللاهوت الى نقد للسياسة» . (نقد فلسفة الحق عند هيجل) . يصدر قريبا عن دار ابن خلدون في سلسلة : الفكر النقدي الماركسي. يشترك في ترجمتها جماعيا: مصطفى الخياطي، العفيف الاخضر ، محمد الكبة ومحمد شعيرات . ـ المترجم ـ

المشاعر الاجتماعية . تلك هي مثالية بوجدانوف التي تموه الاصل المادي للافكار . ان الله هو ، تاريخيا وشعبيا ، قبل كل شيء ، مجموعة من الافكار ولّدها غباء الانسان المكبل بالاغلال ، الانسان المسحوق ، هذا الانسحاق الذي سببه محيطه الطبيعي والقمع الطبقي ، افكار تخلّد هذا الانسحاق وتنيم الصراع الطبقي . لقد اتى حين من الدهر حيث اكتسى صراع البروليتاريا والديموقراطيين شكل صراع **فكرة دينية معينة** ضد اخرى ، هذا بالرغم عن اصل فكرة الله ومغزاها الفعلي .

على اية حال ، ذلك الوقت كان في الماضي البعيد .

اما اليوم في اوروبا وفي روسيا ، فكل دفاع او تبرير لفكرة الله ، حتى الدفاع الاكثر حذقا وحسن نية ، هو تبرير للرجعية .

ان تعريفك كله هو رجعي وبرجوازي بكل ما في الكلمة من معنى .

الله = مجموعة من الافكار «توقظ وتنظم المشاعر الاجتماعية بهدف ربط الفرد بالمجتمع وترويض الفردية الحيوانية» .

لماذا كان رجعيا ؟ لانه يزيّن الفكرة الاسترقاقية والكهنوتية : «ترويض الفردية الحيوانية» . في الواقع ، لم تكن فكرة الله هي التي روّضت «الفردية الحيوانية» ، بل القطيع البدائي والكومونة البدائية . ان فكرة الله خدّرت واوهنت دائما المشاعر الاجتماعية ، باستبدالها ما هو حي بما هو ميت وبابقائها على الدوام فكرة العبودية (اسوأ انواع العبودية ، العبودية التي لا مخرج منها) . ان فكرة الله لم تربط ابدا «الفرد بالمجتمع» ، بل انها ربطت دائما الطبقات المظلومة بجعلها تعتقد في الجوهر الالهي لظالميها .

تعريفك برجوازي (وغير علمي وغير تاريخي) لانه يعالج بالجملة مفاهيم عامة ، «روبنسونية» وليس **طبقات** محددة في حقبة تاريخية محددة .

ان فكرة الله في عقل زيريان المتوحش وآخرين (انصاف المتوحشين ايضا) هي شيء ، وهي شيء آخر عند

ستروفه ومن على شاكلته . في كلا الحالتين هذه الفكرة تجد دعمها في السيطرة الطبقية والفكرة تدعم السيطرة الطبقية . ان المفهوم «الشعبي» عن الله وعما هو إلهي هو الغباء الشعبي ، التبليد ، الجهل ، تماما مثل «المفهوم الشعبي» عن القيصر ، عن غيلان الغابة وعن جر الزوجات من شعورهن . لا افهم مطلقا كيف يمكنك ان تصف بالديموقراطي المفهوم «الشعبي» عن الله .

ليس صحيحا ان المثالية الفلسفية «تضع نصب عينيها دائما مصالح الفرد فقط» . هل نظر ديكارت الى مصالح الفرد بعظمة اكثر من جاسيندي ؟ او فيخته وهيجل اكثر من فيورباخ ؟

انه لرهيب تماما ان نقول شيئا مثل «صنع الله هو مسار التطور اللاحق وتراكم المبادىء الاجتماعية في الفرد وفي المجتمع» ! لو كانت هناك حرية في روسيا ، لقامت البرجوازية باجمعها وجملتك بسبب هذه الاشياء، بسبب هذه السوسيولوجيا وهذا اللاهوت اللذين هما برجوازيان نقيان جدا في النوع وفي الصفة .

ان في هذا لكفاية ، لان رسالتي قد طالت . مرة اخرى اشد على يديك بحرارة واتمنى لك صحة جيدة .

صديقك ف.ا

كتبت في كانون الاول ، ١٩١٣

المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٥

خطاب ألقي في المؤتمر الاول لعاملات عامة روسيا
١٩ تشرين ثاني، ١٩١٨

ايتها الرفيقات ،

ان هذا المؤتمر الذي يضم القطاع النسائي من الجيش العمالي يمتلك ، بمعنى ما ، اهمية خاصة ، لان من اصعب الاشياء في كل بلد هو دفع النساء الى النشاط . لا يمكن ان تكون هناك ثورة اشتراكية ما لم يساهم فيها مساهمة فعالة عدد كبير جدا من النساء العاملات .

لا عجب ان النساء يطلق عليهن اسم عبيد المنازل : هذا هو وضع المرأة في جميع البلدان الحضارية ، حتى الاكثر تقدما . ان النساء لا يتمتعون بكامل المساواة في اي دولة راسمالية ، ولا حتى في اكثر الجمهوريات حرية .

ان احدى المهمات الاولى التي تقع على عاتق الجمهورية السوفياتية هي الغاء جميع القيود عن حقوق المرأة . لقد قضت الحكومة السوفياتية تماما على حوادث الطلاق ، ذلك المصدر من الانحطاط البرجوازي ، والقمع والذل .

ها قد مر عام تقريبا منذ ان شرّعت الحرية الكاملة في

الطلاق . لقد اصدرنا مرسوما يمحي تماما التمييز بين اطفال شرعيين وآخرين غير شرعيين ، ويلغي قيودا سياسية عديدة . ولا في اي مكان من العالم توطدت حرية ومساواة النساء العاملات كما حصل عندنا .

نحن نعلم ان المرأة التي تنتمي الى الطبقة العاملة هي التي تتحمل ثقل ووطأة القوانين التي اكل الدهر عليها وشرب .

لاول مرة في التاريخ، الغى قانوننا كل القوانين وكل الاشياء التي الغت حقوق النساء. ولكن الشيء المهم ليس القانون. ففي المدن والمناطق الصناعية يسير قانون الحرية الكاملة في الزواج بشكل حسن تماما . ولكن في الريف كثيرا وغالبا ما يبقي ذلك القانون كلمات ميتة . هناك ما زال الزواج الديني سائدا . وترجع اسباب ذلك الى تأثير الكهنة ، وذلك شر محاربته اصعب من محاربة التشريع القديم .

يجب ان نكون حريصين للغاية في قتالنا ضد الاوهام الدينية، اذ ان بعض الناس يسبب اذى كبيرا في هذا النضال عندما يسيء الى المشاعر الدينية . يجب ان نستخدم الدعاية والتثقيف . اذا سمحنا للنضال ان يتخذ طابعا حادا ، فمن الممكن الا نفعل شيئا سوى اثارة الاستياء الشعبي . مثل هذه الطرق تميل نحو تخليد تقسيم الناس على طول الخطوط الدينية ، في حين ان قوتنا تكمن في وحدتنا . ان الجذر الاعمق للوهم الديني هو البؤس والجهل ، وذلك هو الشر الذي يجب ان نحاربه .

ان وضع المرأة كان وما يزال يضاهي وضع العبد . لقد قيّدت النساء الى البيت ؛ والاشتراكية فقط تستطيع ان تنقذهم من ذلك . وسيتحررون تماما فقط عندما نتخلص من المزارع الفلاحية الصغيرة ونباشر عملنا في المزارع التعاونية مستخدمين الطرق الجماعية في زراعة الارض . تلك مهمة صعبة . لكن الآن، حيث ان لجان الفلاحين الفقراء هي قيد التشكل ، قد اتى الوقت الذي ستقوى فيه الثورة الاشتراكية وتتماسك اكثر .

ان القسم الاكثر فقرا من السكان الريفيين بدأ اليوم فقط

بتنظيم نفسه ، لكن الاشتراكية تكتسب اساسا متينا في هذه المنظمات الفلاحية .

من قبل ، غالبا ما كانت المدينة تصبح ثورية ، ومن ثم الريف .

لكن الثورة الحالية تعتمد على الريف ، وفي هذا تكمن قوتها وأهميتها . ان تجربة جميع حركات التحرر بيّنت ان نجاح ثورة ما يعتمد على مساهمة النساء فيها . والحكومة السوفياتية تفعل كل ما بوسعها لكي تمكّن النساء من القيام بالعمل البروليتاري الاشتراكي بصورة مستقلة .

ان الحكومة تعاني وضعا صعبا لان امبرياليي جميع البلدان يكرهون روسيا السوفياتية ويستعدون لمحاربتها لانها اشعلت نار الثورة في عدد من البلدان ولانها خطت خطوات ثابتة نحو الاشتراكية .

وبينما هم الآن يقومون بمحاولات لتحطيم روسيا الثورية ، بدأت الارض التي يقفون عليها تميد تحت أقدامهم . انكم تعرفون كيف تنتشر الحركة الثورية في المانيا . والعمال في الدانمارك يقاتلون حكومتهم . والحركة الثورية تتصاعد في سويسرا وهولندا . ان الحركة الثورية في هذه البلدان الصغيرة ليست لها اهمية بحد ذاتها ، ولكنها ذات مغزى بشكل خاص لانه لم يكن هناك حرب في هذه البلدان ، وبالتالي ، لانها تمتلك نظاما «دستوريا» اكثر ديموقراطية . واذا ما بدأت امثال هذه البلدان بالغليان فان هذا يجعلنا نتأكد من ان الحركة الثورية تشق طريقها لتشمل العالم كله .

ليس هناك من جمهورية حتى الآن استطاعت ان تحرر المرأة. ان الحكومة السوفياتية تمد لها يد المساعدة . ان قضيتنا لا تقهر لان الطبقة العاملة التي لا تقهر تنهض في كل البلدان . وهذه الحركة تدل على انتشار الثورة الاشتراكية التي لا تقهر .

من مشروع برنامج الحزب الشيوعي الروسي (البلشفي) فقرة البرنامج المتعلقة بالموقف تجاه الدين

ان سياسة الحزب الشيوعي الروسي بالنسبة للدين هي ان لا يكتفي باصدار مرسوم يقضي بفصل الكنيسة عن الدولة والمدرسة عن الكنيسة ، اي ، ان يكتفي باجراءات وعد بها الديموقراطيون البرجوازيون ولكن لم تتحقق تماما في اي مكان من العالم بسبب الروابط الفعلية الكثيرة بين الرأسمال والدعاية الدينية .

ان الحزب يناضل في سبيل ان يحطم كليا الروابط بين الطبقات المستغِلة وتنظيم الدعاية الدينية ، وايضا في سبيل ان يحرر فعليا الشغيلة من الاوهام الدينية ، منظما الدعاية الاكثر اتساعا ضد الدين ونشر المعرفة العلمية على نطاق واسع . وفي القيام بهذا ، يجب ان يتوفر الحرص على الا تجرح مشاعر المؤمنين حيث ان ذلك من شأنه فقط ان يقوي التعصب الديني .

مهمات منظمات الشباب

خطاب ألقي في المؤتمر الثالث لاتحاد الشبيبة الروسية لعامة روسيا
٢ تشرين ثاني ، ١٩٢٠

ايها الرفاق ، اود اليوم ان احدثكم عن المهمات الاساسية التي تقع على عاتق اتحاد الشبيبة الشيوعية ، وبالتالي ، عما ينبغي ان تكون عليه ، عموما ، منظمات الشباب في جمهورية اشتراكية .

من الضروري اولا بأول ان نعالج هذه المسألة لانه يمكن القول، بمعنى ما ، ان الشباب هم الذين سيواجهون بالمهمة الفعلية التي تقتضي خلق مجتمع شيوعي . فمن الواضح ان جيل العمال الذي تربى في المجتمع الرأسمالي يستطيع ، في احسن الاحوال ، ان ينجز مهمة تحطيم اسس الحياة الاجتماعية الرأسمالية ، القديمة، التي كانت قائمة على الاستغلال . يستطيع ذلك الجيل ، في احسن الاحوال ، ان يخلق نظاما اجتماعيا جديدا من شأنه ان يساعد البروليتاريا والطبقات العاملة على الاحتفاظ بالسلطة وعلى ارساء اساس متين ، لا يستطيع ان يبني عليه سوى الجيل الذي بدأ العمل في ظل الظروف الجديدة ، في وضع زالت فيه علاقات الاستغلال بين الناس .

وهكذا ، بالنظر الى مهمات الشباب من هذه الزاوية ، يترتب عليّ ان اقول ان مهمات الشباب ، بوجه عام ، ومهمات اتحادات الشبيبة الشيوعية وجميع المنظمات الاخرى بوجه خاص ، يمكن

تلخيصها بكلمة واحدة : تعلموا .

بالطبع هذه «كلمة واحدة» وحسب . انها لا تجيب على المسائل الرئيسية والاكثر جوهرية : ماذا نتعلم ، وكيف ؟ وبيت القصيد هنا هو انه ، مع تحوّل المجتمع الرأسمالي القديم ، لا يمكن للاجيال الجديدة التي ستخلق المجتمع الشيوعي ، ان تتعلم، ان تتثقف وتتربى بنفس الاساليب والطرق القديمة . ان تعليم الشباب ، تثقيفهم وتربيتهم ، يجب ان ينطلق من المواد التي خلّفها لنا المجتمع القديم . اننا لا نستطيع ان نبني الشيوعية الا على اساس كليّة المعارف ، المنظمات والمؤسسات ، الا باستخدام رصيد القوى الانسانية والوسائل التي تركها لنا المجتمع القديم. فقط اذا اعدنا صياغة تعليم الشباب ، تثقيفه وتربيته ، صياغة راديكالية ، سنضمن بان جهود الجيل الفتي ستفضي الى خلق مجتمع جديد يختلف عن المجتمع القديم ، اي ، الى خلق مجتمع شيوعي . ذلك هو ما يحتم علينا ان نعالج بالتفصيل مسألة ماذا ينبغي لنا ان نعلّم الشباب وكيف ينبغي للشباب ان يتعلموا اذا كانوا حقا لا يريدون ان يبقوا شيوعيين بالاسم فقط ، وكيف يجب تربيتهم لكي يصبحوا قادرين على ان ينجزوا الى النهاية ما بدأنا به .

يجب عليّ ان اقول ان الاجابة الاولى والاكثر طبيعية التي تتبادر الى الذهن هي ان اتحاد الشبيبة وعامة الشباب الذين يريدون ان يتقدموا نحو الشيوعية ينبغي عليهم ان يتعلموا الشيوعية .

لكن هذه الاجابة ــ «تعلموا الشيوعية» ــ هي عامة جدا . ماذا نحتاج لكي نتعلم الشيوعية ؟ ماذا يجب ان نفرز من مجموع المعارف العامة لكي نكتسب معرفة الشيوعية ؟ هنا ينشأ عدد من المخاطر التي تكشف غالبا عن نفسها كلما تُطرح مهمة تعلم الشيوعية بصورة غير صحيحة او عندما تفسر بصورة وحيدة الجانب .

من الطبيعي ان الفكرة الاولى التي تمر بالخاطر هي ان تعلم الشيوعية يعني اكتساب مجموع المعارف التي تشتمل عليها الكتب ، المؤلفات والكراريس الشيوعية . لكن مثل هذا التعريف لدراسة الشيوعية هو فجّ جدا وغير واف . اذ لو كانت دراسة الشيوعية تتوقف وحسب على اكتساب ما هو موجود في الكتب والكراريس الشيوعية، لحصلنا بسهولة فائقة جدا على «متلاعبين» شيوعيين بالنصوص او متبجحين ، وهذا من شأنه ان يسبب لنا الاذى والضرر في اغلب الاحيان ، لان مثل هؤلاء الناس ، الذين فقط يرددون آليا ما هو موجود في الكتب والكراريس الشيوعية، سيثبتون عجزهم عن توحيد جميع فروع المعرفة ، وعدم قدرتهم على الفعل بالطريقة التي تتطلبها الشيوعية فعلا .

من اعظم الشرور والمصائب التي تركها لنا المجتمع الراسمالي القديم هي الانفصال الكامل بين الكتب والحياة العملية ؛ فقد حصلنا على كتب تصف كل شيء بأفضل طريقة ممكنة ، لكن هذه الكتب لم تكن ، في اغلب الحالات ، سوى كذب ونفاق كريهين ، يصوران المجتمع الرأسمالي بشكل مزيف .

ولذلك فانه من الخطأ الجسيم ان نستوعب وحسب ما هو وارد في الكتبالتي تتحدث عن الشيوعية. ان خطاباتنا ومقالاتنا، اليوم ، ليست مجرد تكرار لما قيل سابقا عن الشيوعية ، ذلك انها ترتبط بعملنا اليومي في كل فرع ، بدون عمل ، بدون نضال ستظل المعرفة المجردة بالشيوعية التي حصلنا عليها من الكتب والكراريس ، عديمة الفائدة بشكل مطلق لانها ستظل تشهد على استمرار الانفصال القديم بين النظرية والممارسة ، هذا الانفصال الذي يشكل السمة الاكثر اثارة للقرف من بين سمات المجتمع البرجوازي القديم .

وسيظل الامر الاكثر خطورة هو ان نبدأ بتشرب الشعارات الشيوعية وحسب . ان لم نتدارك هذا الخطر في حينه ، وان لم نوجه جميع جهودنا نحو تفاديه ، فان نصف المليون او المليون من

الشباب والفتيات الذين سيسمون انفسهم شيوعيين بعد دراسة للشيوعية بهذه الطريقة ، سيلحق اذى كبيرا بقضية الشيوعية .

هنا ينشأ السؤال الآتي : كيف ينبغي لنا ان نوحّد كل هذا لاجل دراسة الشيوعية ؟ ماذا يجب ان نأخذ من المدرسة القديمة، ومن العلم القديم . كانت المدرسة القديمة تعلن بأن هدفها هو انتاج اناس ذوي ثقافة شاملة وتعليم العلوم بشكل عام . بيد انه لا يخفى علينا ان ذلك كان كذبا فاضحا ، لان المجتمع كله كان مرتكزا ومتوطدا على اساس تقسيم الناس الى طبقات ، الى مظلومين وظالمين . ومن الطبيعي ان المدرسة القديمة كلها ، نظرا لكونها كانت مشبّعة تماما بالروح الطبقية ، منحت المعرفة لابناء البرجوازية فقط . فكل كلمة زيّفت لمصلحة البرجوازية . وفي هذه المدارس لم يكن الامر المهم تربية ابناء العمال والفلاحين بقدر ما كان ترويضهم لخدمة مصالح البرجوازية . لقد كانوا يتربون بطريقة تجعل منهم خدما نافعين للبرجوازية ، قادرين على خلق الارباح لها دون ازعاج طمأنينتها وراحتها . ذلك هو السبب في اننا ، بينما كنا ننبذ المدرسة القديمة ، جعلنا من مهمتنا ان نأخذ فقط ما نحن بحاجة اليه لاجل تربية شيوعية حقيقية .

وهنا اتوقف عند تلك الملامات والاتهامات التي نسمعها مرارا توجه الى المدرسة القديمة ، والتي غالبا ما تؤدي الى استنتاجات خاطئة كليا . يقال ان المدرسة القديمة كانت مدرسة من الحشو السريع ، الدراسة المضنية والروتين الممل . هذا صحيح ، ولكن علينا ان نميز بين ما هو سيء في المدرسة القديمة وبين ما هو نافع بالنسبة لنا ، وعلينا ان نكون قادرين على ان نختار منها ما هو ضروري للشيوعية .

كانت المدرسة القديمة مدرسة من الحشو السريع ، لقد كانت تكره التلاميذ على تشرب طائفة من المعارف التي لا نفع فيها، ولا ضرورة لها ، ولا خير يُرجى منها ، والتي كانت تثقل الدماغ

وتحوّل الجيل الفتي الى بيروقراطيين مسبوكين في قالب واحد ووحيد . ولكنكم سترتكبون خطأ عظيما اذا ما حاولتـــــم ان تستخلصوا من ذلك الاستنتاج القائل بأن المرء يستطيع ان يصبح شيوعيا بدون اكتساب المعارف التي راكمتها المعرفة الانسانية . ومن الخطأ ان تظنوا بأنه يكفي تعلـــم الشعارات الشيوعيـــة واستنتاجات العلم الشيوعي بدون اكتساب مجموع المعارف التي تشكل الشيوعية نفسها نتيجتها . ان الماركسية هي مثلٌ عـن كيف نشأت الشيوعية من مجموع المعارف الانسانية .

لقد قرأتم وسمعتم ان النظرية الشيوعية ، ان علم الشيوعية الذي انشأه ماركس بصورة رئيسية ، ان مذهب الماركسية هذا، كفّ عن كونه نتاجا من صنع اشتراكي واحد في القرن التاسـع عشر ، حتى ولو كان عبقريا ، وانما اصبح مذهب الملايين وعشرات الملايين من البروليتاريين في العالم بأسره ، الذين يطبقون هذا المذهب في نضالهم ضد الراسمالية . واذا ما طرحتم السؤال الآتي : كيف امكن لافكار ماركس ان تتغلغـــل في قلوب الملايين وعشرات الملايين من الطبقة الاكثر ثورية ، فانكم لن تسمعوا سوى جواب واحد : ذلك لأن ماركس انشأ عمله على الاساس المتين للمعارف الانسانية المكتسبة في ظل الراسمالية . فقـــد درس ماركس قوانين تطور المجتمع الانساني وتحقق من حتمية تطـور الراسمالية نحو الشيوعية . والامر الرئيسي هنا هو انه برهن على هذا بالضبط على اساس الدراسة الاكثر دقة ، الاكثـــر تفصيلا والاكثر عمقا ، لهذا المجتمع الراسمالي ؛ وذلك باستيعابه استيعابا تاما كل ما انتجه العلم السابق . لقد اعاد ، بروح نقدية، صياغة كل ما ابدعه المجتمع الانساني ، دون ان يتجاهل نقطـــة واحدة . وكل ما ابدعه الفكر الانساني ، اعاد ماركس صياغته ، انتقده ، وضعه على محك حركة الطبقة العاملة ، واستخلـــص استنتاجات لم يستطع ان يستخلصها الناس الذين لا يتعـــدى تفكيرهم الاطار البرجوازي او المقيّدون بالاوهام البرجوازية .

يجب الا يغيب هذا عن ذاكرتنا عندما نتحدث ، مثلا عن الثقافة البروليتارية . فاذا لم ندرك بوضوح ان المعرفة الدقيقة بالثقافة التي ابدعها مجمل تطور الانسانية وإعادة صياغة هذه الثقافة هما اللتان تتيحان لنا بناء الثقافة البروليتارية ـ اذا لم نفهم ذلك ، فلن يكون بمقدورنا ان نحل هذه المسألة . ان الثقافة البروليتارية ليست شيئا انبجس لا يعرف احد من اين ؛ انها ليست اختراعا قام به الناس الذين يسمون انفسهم اختصاصيين في الثقافة البروليتارية . كل ذلك هراء . ان الثقافة البروليتارية يجب ان تكون نتيجة التطور الطبيعي لمجمل المعارف التي صاغتها الانسانية تحت تأثير المجتمع الرأسمالي ، مجتمع الملاكين العقاريين ، والمجتمع البيروقراطي . كل هذه الطرق ادت وتؤدي وستظل تؤدي الى الثقافة البروليتارية ، بنفس الطريقة التي بيّن لنا بها الاقتصاد السياسي ، الذي اعاد ماركس صياغته نقديا ، ما يجب ان يؤول اليه المجتمع الانساني ، كما بيّن لنا ايضا الانتقال الى الصراع الطبقي ، الى بداية الثورة البروليتارية .

عندما نسمع مرارا ممثلي الشباب وبعض المدافعين عن التعليم الجديد يهاجمون المدرسة القديمة قائلين انها كانت مدرسة من الحشو السريع ، فاننا نقول لهم يجب علينا ان نأخذ من المدرسة القديمة ما كان جيدا . يجب الا نأخذ منها ذلك النظام الذي يثقل عقول الشباب بكمية هائلة من المعارف التي تسعة أعشارها بلا فائدة والعشر الباقي مشوه . بيد ان هذا لا يعني ان نحصر انفسنا ضمن نطاق الاستنتاجات الشيوعية ونتعلم فقط الشعارات الشيوعية . انكم لن تخلقوا الشيوعية بتلك الطريقة . ولن تصبحوا شيوعيين الا حين تغتني عقولكم بمعرفة الكنوز الفكرية التي ابدعتها الانسانية .

لسنا بحاجة الى الحشو السريع ؛ ولكننا بحاجة الى ان نطوّر ونحسن عقل كل تلميذ بمعرفة الوقائع الاساسية . لان الشيوعية ستؤول الى مجرد فراغ ، الى مجرد لافتة ، لأن الشيوعي سيغدو

مجرد متبجح اذا لم يهضم عقله جميع المعارف التي اكتسبها . ولا يكفي استيعاب هذه المعارف بل ينبغي عليكم ان تستوعبوها بصورة نقدية ، لكي لا تعبئوا عقولكم بأشياء مخلوطة لا فائدة منها، وانما لكي تغنوها بكل تلك المعارف التي لا بد منها للانسان المثقف الحديث . واذا ما خطر لشيوعي ان يفتخر بشيوعيته بسبب الاستنتاجات الجاهزة التي اكتسبها بدون مقدار عظيم من العمل الصعب والجدي ، بدون فهم الوقائع التي يجب ان يعاينها نقديا، فانه سيكون شيوعيا بائسا جدا . مثل هذه السطحية ستكون مميتة من غير شك . فاذا كنت اعرف اني اعرف قليلا ، سأكافح لكي اتعلم اكثر ، لكن اذا كان هناك انسان يقول بانه شيوعي وانه ليس بحاجة لأي شيء تماما ، فانه لن يكون هناك ابدا اي شيء يوحي بانه شيوعي .

كانت المدرسة القديمة تعد الخدمالذين يحتاجهم الرأسماليون؛ كانت المدرسة القديمة تحوّل رجال العلم الى رجال عليهم ان يكتبوا ويقولوا ما يَسر الرأسماليين . لذلك يجب ان نقضي عليها . لكن هل القضاء عليها وتحطيمها يعني الا نأخذ منها جميع ما راكمته الانسانية وما هو جوهري بالنسبة للانسان ؟ هل يعني هذا انه لا يجدر بنا ان نميز بين ما هو ضروري للرأسمالية وبين ما هو ضروري للشيوعية ؟

اننا نستبدل الانضباطية القسرية التي كانت تستخدم في المجتمع البرجوازي خلافا لارادة الاغلبية ، بالانضباط الواعي طبقيا للعمال والفلاحين ، الذين يؤلفون بين حقدهم على المجتمع القديم وعزمهم وقدرتهم واستعدادهم لتوحيد وتنظيم قواهم من اجل هذا القتال ، لكي يحوّلوا ارادة الملايين ومئات الملايين من الناس المجزئين ، المشتتين والمبعثرين على طول البلاد الواسعة ، الى ارادة واحدة وموحدة ؛ هذه الارادة الموحدة التي بدونها تكون الهزيمة محتومة . بدون هذه الارادة الموحدة ، بدون هذا التضامن ، بدون هذا الانضباط الواعي من جانب العمال

والفلاحين ، ستكون قضيتنا بلا أمل . بدون هذا لن نستطيع أن نسحق الراسماليين والملاكين العقاريين في العالم كله. لن نستطيع ان نوطد حتى اساس المجتمع الشيوعي الجديد ، ناهيك عن بنائه . وهكذا ، بينما ننبذ المدرسة القديمة ، بينما نضمر حقدا مطلقا ، شرعيا واساسيا على المدرسة القديمة ، بينما نجل الاستعداد لتحطيم المدرسة القديمة ، يجب ايضا ان نعرف ان واجبنا هو ان نستبدل نظام التعليم القديم ، الحشو السريع القديم ، الترويض الآلي القديم ، بالقدرة على اكتساب مجموع المعارف الانسانية ، وعلى اكتسابها بطريقة لا تجعل من الشيوعية شيئا يمكن تعلمه بحفظه غيبا وترديده آليا ، وانما بطريقة تجعل منها شيئا انتم انفسكم فكرتم وتفكرون به ، شيئا يجسّد الاستنتاجات التي هي حتمية من وجهة نظر الثقافة الحديثة .

تلك هي الطريقة التي يجب ان نقدم بها المهمات الرئيسية عندما نتحدث عن مهمة : تعلموا الشيوعية .

لكي افسّر لكم هذا ومن ثم اتناول مسألة كيف نتعلم ، اعطيكم مثلا عمليا . انكم تعرفون ان المهمات الاقتصادية تتبع مباشرة المهمات العسكرية ومهمة الدفاع عن الجمهورية . اننا نعلم ان المجتمع الشيوعي لا يمكن بناءه اذا لم نبعث من جديد الصناعة والزراعة ؛ ليس ، بالطبع ، على اساس الطريقة القديمة، وانما على اساس حديث ، تبعا لآخر كلمة في العلم . تعلمون ان هذا الاساس هو الكهرباء وانه فقط عندما تكهرب البلاد كلها وجميع فروع الصناعة والزراعة ، فقط عندما تبلغون هذا الهدف ، سيكون بمقدوركم ان تبنوا لانفسكم المجتمع الشيوعي الذي لا يستطيع الجيل السابق ان يبنيه . المهمة التي تواجهكم هي مهمة انعاش كل البلاد اقتصاديا ، اعادة تنظيم واحياء الصناعة والزراعة معا على أسس تكنيكية حديثة ترتكز بدورها على العلم الحديث والتكنولوجيا وعلى الكهرباء . وتعرفون تمام المعرفة ان الناس الاميين لا يستطيعون ان يحلوا مسألة الكهرباء،

كما تعلمون ايضا ان معرفة القراءة والكتابة ليست كافية هنا . اذ انه لا يكفي ان نعرف ما هي الكهرباء ، فمن الضروري ان نعرف كيف نطبقها تكنيكيا على الصناعة والزراعة وعلى جميع فروعهما المختلفة . هذا ما يجب ان نتعلمه بانفسنا ونعلمه لكل الجيل الصاعد من الشغيلة . وهذه هي المهمة التي تواجه كل شيوعي واع طبقيا ، وكل شاب يعتبر نفسه شيوعيا ويفهم بوضوح انه عندما يلتحق باتحاد الشبيبة الشيوعية يأخذ على نفسه عهدا بمساعدة الحزب في بناء الشيوعية ومساعدة كل الجيل الفتي في خلق المجتمع الشيوعي . كما يجب ان يعلم ايضا انه لا يستطيع ان يخلقه الا على اساس الثقافة الحديثة ، واذا لم يكتسب هذه الثقافة فان الشيوعية ستظل مجرد رغبة زائفة .

ان مهمة الجيل السابق كانت الاطاحة بالبرجوازية . كانت المهمة الرئيسية يومئذ هي انتقاد البرجوازية ، إثارة الحقد عليها بين الجماهير ، تطوير وعي الجماهير الطبقي وقدرتها على توحيد قواها . اما الجيل الجديد فتقع على عاتقه مهمة اكثر تعقيدا . اذ لا ينبغي لكم فقط ان توحدوا جميع قواكم لدعم سلطة العمال والفلاحين ضد هجمات الرأسماليين . ذلك يجب ان تفعلوه. ذلك ادركتموه بوضوح . ذلك ما يدركه الشيوعي من غير ريب . ولكنه ليس كافيا . ان مهمتنا هي بناء المجتمع الشيوعي . في كثير من النواحي انجز نصف العمل . لقد تم تحطيم النظام القديم ، كما كان ينبغي تحطيمه ، وتحول الى ركام من الخراب ، كما كان ينبغي تحويله . لقد نظفت الساحة ، وعلى هذه الساحة يجب ان يبني الجيل الجديد مجتمعا شيوعيا . تواجهكم مهمة البناء ، ولن تستطيعوا ان تتغلبوا على مصاعبها ومشاكلها الا اذا تمكنتم من استيعاب كل المعارف الحديثة ، الا اذا كنتم قادرين على تحويل الشيوعية من صيغ جاهزة ومحفوظة غيبا ، ووصفات ، وتوصيات، وتعليمات وبرامج ، الى ذلك الشيء الحي الذي يوحّد عملكم المباشر ، الا اذا استطعتم ان تحوّلوا الشيوعية الى مرشد لعملكم .

هذه هي المهمة التي يجب ان تسترشدوا بها في تعليم كل الجيل الفتي ، تثقيفه ودفعه الى الامام . يجب ان تكونوا في مقدمة الملايين التي تبني المجتمع الشيوعي ، الملايين التي يجب ان يلتحق بهم كل شاب وكل فتاة . واذا لم تجتذبوا كل الجماهير الفتية من العمال والفلاحين الى مهمة بناء الشيوعية ، فانكم لن تبنوا مجتمعا شيوعيا .

وهنا اصل بشكل طبيعي الى مسألة كيف ينبغي لنا ان نتعلم الشيوعية وما هي السمات المحددة التي يجب ان تتخذها اساليبنا.

هنا ، وقبل كل شيء ، سأتناول مسألة الاخلاق الشيوعية ؟

يجب ان تربوا انفسكم لتكونوا شيوعيين . ان مهمة اتحاد الشبيبة هي ان ينظم نشاطاته العملية بطريقة تجعل من اعضائه وجميع من يسترشدون به، شيوعيين عن طريق التعليم، التنظيم، التوحيد والنضال . ان الهدف كله من تعليم شباب اليوم ، تربيتهم وتثقيفهم ، يجب ان يكون تنمية الاخلاق الشيوعية عندهم .

ولكن هل هناك شيء اسمه الاخلاق الشيوعية ؟ هل ثمة مناقبية شيوعية ؟ بالطبع وبكل تأكيد . غالبا ما يقال انه ليس لدينا اخلاق خاصة بنا ، وغالبا ما تتهم البرجوازية الشيوعيين بأنهم ينكرون كل الاخلاق . هذه طريقة لخلط المفاهيم ، لذر الرماد في عيون العمال والفلاحين .

بأي معنى ننكر الاخلاق والمناقبية ؟

بالمعنى الذي بشّرت به البرجوازية التي استمدت الاخلاق من وصايا الله . نقول ، بالطبع ، نحن لا نؤمن بالله . ونعرف تماما وجيدا ان رجال الدين ، والملاكين العقاريين ، والبرجوازيين تكلموا باسم الله سعيا وراء مصالحهم الخاصة كمستغلين ، او بدلا من اشتقاق الاخلاق من وصايا المناقبية ، من وصايا الله ، اشتقوها من الجمل المثالية وشبه المثالية التي عادلت دائما شيئا شبيها جدا بوصايا الله .

اننا ننكر كل المناقبية المستخلصة من خارج المجتمع الانساني والطبقات . اننا نقول ان الاخلاق هي خداع ، دجل ، تشويش لاذهان العمال والفلاحين في خدمة مصالـــح الملاكين العقاريين والرأسماليين .

نقول ان اخلاقنا تخضع باجمعها لمصالح الصراع الطبقـــي للبروليتاريا . وإن اخلاقنا هي مشتقة من مصالح الصراع الطبقي للبروليتاريا .

لقد كان المجتمع القديم يرتكز على اضطهاد جميـــع العمال والفلاحين من قِبَل الملاكين العقاريين والرأسماليين . كان علينا ان نحطم هذا ؛ كان علينا ان نطيح بهم ولكن لاجل هذا كان يجب ان نخلق الوحدة . ولم يكن الله ليخلق مثل هذه الوحدة .

لم يكن من الممكن ان تتوفر هذه الوحدة الا على يد المصانع ، الا على يد البروليتاريا التي تربَّت واستيقظت من سباتها الطويل. وفقط عندما تشكلت تلك الطبقة ، بدأت فعليا الحركة الجماهيرية التي ادت الى ما نراه اليوم ـ انتصار الثورة البروليتارية في بلد من اضعف البلدان ، في بلد يصد منذ ٣ سنوات هجمات برجوازية العالم كله . وها نحن نرى كيف تتصاعد الثورة البروليتارية على نطاق العالم بأسره . ونقول الآن ، على اساس تجربتنـــــا ، ان البروليتاريا وحدها هي التي كانت تستطيع خلق تلك القوة الصلبة التي يتبعها الفلاحون المبعثرون والمشتتون ، والتي تصمد امـــام جميع هجمات المستغِلين . هذه الطبقة وحدها هي التي تستطيع ان تساعد الجماهير العاملة على ان تتحد ، توحد صفوفها وتدافع نهائيا ، تتضامن نهائيا ، وتثبت المجتمع الشيوعي نهائيا .

وذلك هو السبب في اننا نقول انه ليست لدينا اخـــلاق خارج المجتمع الانساني ؛ انها دجل . ان الاخلاق هي بالنسبـــة لنا خاضعة لمصالح الصراع الطبقي للبروليتاريا .

وماذا يعني هذا الصراع الطبقي ؟ انه يعني الاطاحة بالقيصر، الاطاحة بالرأسماليين ، والقضاء على الطبقة الرأسمالية .

وما هي الطبقات بوجه عام ؟ الطبقات هي ما يسمح لقسم معين من المجتمع ان يتملك عمل القسم الآخر . اذا كان هناك قسم من المجتمع يتملك كل الارض ، فنحن ، اذن ، امام طبقة من الملاكين العقاريين وطبقة من الفلاحين . اذا كان هناك قسم من المجتمع يتملك المصانع ، والاسهم والرساميل ، بينما القسم الآخر يشتغل في هذه المصانع ، فنحن ، اذن ، امام طبقة رأسمالية وطبقة بروليتارية .

لم يكن من الصعب ان نطرد القيصر ــ ذلك تطلّب بضعة ايام فقط . ولم يكن من الصعب جدا ان نطرد الملاكين العقاريين ــ ذلك انجزناه في بضعة اشهر . كذلك ايضا لم يكن من الصعب جدا ان نطرد الرأسماليين . ولكن الامر الاكثر صعوبة بما لا يقاس هو ان نقضي على الطبقات ، فما زال يوجد عندنا الانقسام الى عمال وفلاحين. اذا استقر الفلاح على قطعة ارضه المستقلة وتملك فائضا من الحبوب ، اي ، تملك حبوبا لا يحتاجهـا لنفسه او لماشيته ، بينما باقي الناس يعيش بلا حبوب ، فان هذا الفلاح يصبح ، عندئذ ، مستغِلا . وكلما تشبث بحبوبه اكثر، كلما وجد ذلك مربحا اكثر . اما بالنسبة للآخرين ، فدعهم يجوعون . «كلما جاعوا اكثر ، كلما بعت حبوبي بسعر اغلى» . كل فرد يجب عليه ان يعمل تبعا لخطة مشتركة ، في مصانع مشتركة وفقا لنظام مشترك . هل من السهل بلوغ هذا ؟ انكم ترون ان المسألة ليست سهلة بقدر ما كانت سهولة طـرد القيصر ، والملاكين العقاريين والرأسماليين . المطلوب هو ان تعيد البروليتاريا تربية وتثقيف قسم من الفلاحين ، ويجب ان تجتذب اليها اولئك الذين هم فلاحون عاملون لكي تسحق مقاومة اولئك الفلاحين الذين هم اغنياء ويزيدون الارباح على حساب بؤس الآخرين وعوزهم . ولذلك فان مهمة النضال البروليتاري لم تنته بواقع اننا اسقطنا القيصر وطردنا الملاكين العقاريين والرأسماليين ، وانهاؤها يقع على عاتق النظام الذي نسميه ديكتاتورية البروليتاريا .

ان الصراع الطبقي ما زال مستمرا ؛ لقد غيّر مجرد اشكاله.
ومهمة الصراع الطبقي للبروليتاريا هي ان يحـــول دون عودة المستغِلين القدامى ، وهي ان يوحد الجماهير المشتتة من الفلاحين الجاهلين في اتحاد واحد . ان الصراع الطبقي يستمر ومهمتنا هي ان نخضع كل المصالح لهذا النضال ، ونحن نخضع اخلاقنـــا الشيوعية لهذه المهمة . اننا نقول : الاخلاق هي ما يساعد على تحطيم المجتمع الاستغلالي القديم وعلى توحيد جميع الشغيلة حول البروليتاريا التي تنشىء مجتمعا شيوعيا جديدا .

ان الاخلاق الشيوعية هي الاخلاق التي تخدم هذا النضال ، هي التي توحّد الشغيلة ضد كل المستغِلين ، ضد الملكية الصغيرة باجمعها ، لان الملكية الصغيرة تضع بين يدي فرد واحد ما خلقه عمل المجتمع بأسره . في بلدنا الارض هي ملكية مشتركة .

لكن لنفترض اني اخذت قطعة من الارض وحصلت منها على كمية من الحبوب تزيد الضعفين عما انا بحاجة اليه ، ثم بدأت اضارب بهذا الفائض ؟ قائلا انه كلما تزايد عدد الجياع كلما تزايدت الاسعار التي ستدفع لي ؟ فهل يكون عندئذ سلوكي سلوكـــا شيوعيا ؟ كلا ، سيكون مثل سلوك المستغِل ، مثل سلوك المالك. هذا يجب ان نحاربه . واذ لم نحرك ساكنا تجاهه فان الاشياء ستزحف الى الوراء ، الى سيطرة الراسماليين ، الى سيطـــرة البرجوازية ، كما حدث اكثر من مرة في الثورات السابقة . ولكي نحول دون رجوع سيطرة الرأسماليين والبرجوازية يجب الا نسمح لأفراد ان يغتنوا على حساب الآخرين ، ويجب على الشغيلة ان يتحدوا مع البروليتاريا ويشكلوا مجتمعا شيوعيا . هذه هي السمة الرئيسية للمهمة الاساسية التي تقع على عاتق اتحـــاد الشبيبة ومنظمات الشباب الشيوعي .

لقد كان المجتمع القديم مرتكزا على هذا المبدأ : اسلب او تسلب ، إشتغل للآخرين او اجعل الآخرين يشتغلون لك ، كـن مالكا للعبيد او عبدا . ومن الطبيعي ان الناس الذين تربوا فـي

مثل هذا المجتمع شربوا مع حليب امهاتهم ، اذا جاز القول ، هذه النفسية ، هذه العادة ، هذا المفهوم : انت إما مالك للعبيد او عبد ، او مالك صغير ، او مستخدم صغير ، او موظف صغير ، او مثقف ـ باختصار : انت انسان يفكر بنفسه فقط ، ولا يلتفت الى اي شخص آخر .

اذا كنت اشتغل هذه القطعة من الارض ، فانني لا التفت الى اي شخص آخر ؛ واذا جاع الآخرون ، فذلك هو الافضل ، لانني سأحصل على المزيد لقاء حبوبي . اذا كان لي منصب كطبيب ، او مهندس ، او معلم ، او مستخدم ، فانـــــي لا التفت الى اي شخص آخر . ربما اذا استجبت اليـــوم لاصحاب السلطـــة وارضيتهم ، قد احافظ على منصبي ، بل حتى قد تتيسر احوالي وأصبح برجوازيا . ان الشيوعي لا يمكن ان يمتلك مثل هـــذه النفسية ومثل هذه الحالة المعنوية. عندما برهن العمال والفلاحون على انهم قادرون بجهودهم الخاصة على ان يدافعوا عن انفسهـم ويخلقوا مجتمعا جديدا ـ فان ذلك كان بداية التربية الشيوعية الجديدة ، التربية في خضم النضال ضد المستغِلين ، التربية في غمرة التحالف مع البروليتاريا ضد الوصوليين وصغار الملاكين ، ضد النفسية والعادات التي تقول : حسبي ان الهث وراء ربحي الخاص ، ولا التفت الى اي شيء آخر .

هذه هي الاجابة على مسألة كيف ينبغي للجيـــــل الشاب والصاعد ان يتعلم الشيوعية .

انه لا يستطيع ان يتعلم الشيوعية الا اذا ربط كل خطـــوة يخطوها في دراسته ، تربيته وتثقيفه ، بالنضال المستمر الذي يشنه البروليتاريون والشغيلة ضد المجتمع الاستغلالي القديم . وعندما يحدثنا الناس عن المناقبيـــــة ، نقول لهم : بالنسبـــة للشيوعيين ، كل المناقبية تكمن في هـــذا الانضباط الصلب ، المتآلف ، وفي هذا النضال الجماهيري الواعي ضد المستغِلين. اننا لا نؤمن بانه يوجد هناك اخلاق ابدية ، ونحن نفضح كل هذه

التلفيقات الخادعة حول المناقبية . ان المناقبية هي ما يساعد المجتمع الانساني على ان يرتفع الى مستوى اعلى وعلى ان يتخلص من استغلال العمل .

لكي نبلغ هذا نحتاج الى ذلك الجيل الفتي الذي بدأ يعي في خضم النضال المستميت والمنضبط ضد البرجوازية . ان هذا الجيل سيربي في خضم النضال شيوعيين حقيقيين ، ويجب ان يخضع لهذا النضال ويربط به كل خطوة يخطوها في دراسته ، تثقيفه وتربيته . ان تربية الشباب الشيوعي لا يجب ان تتوقف على اعطائهم الخطابات الوجدانية والوصفات المناقبية . ليس هذا ما تتوقف عليه التربية . عندما رأى الناس كيف كان آباؤهم وامهاتهم يعيشون تحت نير الملاكين العقاريين والرأسماليين ، عندما ذاقوا بأنفسهم مرارة الآلام التي عاناها اولئك الذين بدأوا النضال ضد المستغِلين ، عندما رأوا اي تضحيات يستلزمها استمرار هذا النضال لكي يدافعوا عن مكتسباته ، وعندما رأوا اي اعداء مسعورين هم الملاكون العقاريون والرأسماليون — فانهم تربوا فيهذه البيئة تربية شيوعية. ان اساس المناقبية الشيوعية هو النضال لاجل تعزيز الشيوعية وانجازها . وذلك هو ايضا اساس التربية الشيوعية والتعليم الشيوعي والتثقيف الشيوعي: وتلك هي الاجابة على مسألة كيف ينبغي تعلم الشيوعية .

اننا لن نؤمن بالتربية، بالتعليم والتثقيف ، اذا كانوا محصورين ضمن نطاق المدرسة وحسب ، ومفصولين عن الحياة المتدفقة . اذا ظل الملاكون العقاريون والرأسماليون مستمرين في اضطهاد العمال والفلاحين ، واذا ظلت المدارس باقية بين ايدي الملاكين العقاريين والرأسماليين ، فان الجيل الصاعد سيظل اعمى وجاهلا . لكن مدرستنا يجب ان تمنح الشباب اسس المعرفة ، والقدرة على تكوين العقلية الشيوعية بانفسهم ، يجب ان تصنع منهم اناسا مثقفين . ففي مدة دراستهم ، يجب ان تربيهم تربية تجعل منهم مشتركين في النضال لأجل التحرر من المستغِلين .

ان اتحاد الشبيبة الشيوعية سيبرر اسمه كإتحاد الجيل الشيوعي الصاعد فقط عندما يربط كل خطوة يخطوها في تربيته ، في تعليمه وتثقيفه ، بالنضال المشترك الذي يخوضه جميع الشغيلة ضد المستغِلين . لانكم تعرفون جيدا انه ما دامت روسيا هي الجمهورية العمالية الوحيدة ، وما دام النظام البرجوازي القديم قائما في باقي العالم ، فاننا سنظل اضعف منهم ، سنظل مهددين في كل لحظة بهجوم جديد ، ولن نستطيع ان نكسب في النضال اللاحق الا اذا تعلمنا ان نكون صلبين ومتآلفين ؛ وحين نكتسب تلك القوة نصبح حقا قوة لا تقهر . وهكذا ، ان يكون المرء شيوعيا يعني انه يجب ان ينظم ويوحد كل الجيل الصاعد ويضرب مثلا يحتذى بالتربية والانضباط في هذا النضال . عندئذ سيكون بمقدوركم ان تبدأوا بناء صرح المجتمع الشيوعي وتنجزوه .

لكي اجعل هذا اكثر وضوحا لكم سأعطيكم مثلا . اننا نسمي انفسنا شيوعيين . فمن هو الشيوعي ؟ ان كلمة «شيوعي» هي من اصل لاتيني . فكلمة «كوميونيس» في اللاتينية تعني مشترك . ان المجتمع الشيوعي هو مجتمع تكون فيه جميع الاشياء ــ الاراضي ، المصانع ــ ملكية مشتركة ويكون فيه العمل مشتركا . تلك هي الشيوعية .

هل من الممكن ان نعمل بصورة مشتركة اذا كان كل واحد منا يعمل ضمن قطعة ارض لحسابه الخاص ؟ ان العمل المشترك لا يمكن أن يتثبت دفعة واحدة . ذلك مستحيل . انه لا يهبط من السموات . انه يأتي عبر الكدح والالم؛ وينخلق في مجرى النضال . ان الكتب القديمة لا تنفع هنا ؛ لن يصدقها احد . ان الخبرة الحية الخاصة بكل امرىء هي المطلوبة . عندما تقدم كولتشاك ودينيكين من سيبيريا والجنوب كان الفلاحون الى جانبهما . لم ترضيهم البلشفية لان البلاشفة كانوا يأخذون حبوبهم بسعر ثابت . ولكن عندما عانى الفلاحون في سيبيريا وأوكرانيا سيطرة كولتشاك ودينيكين ، ادركوا انه ليس أمامهم سوى خيار واحد : اما ان

يذهبوا الى الراسمالي الذي سيُدخلهم قفص العبودية ويسلمهم الى الملاك العقاري ، وإما ان يتبعوا العامل الذي لا يعد ، حقا ، بأرض يتدفق منها الحليب والعسل ، العامل الذي يطلب منهم انضباطا حديديا وثباتا حديديا في النضال الشاق ، ولكنه الذي سيقودهم الى الخلاص من استعباد الرأسماليين والملاكين العقاريين . وحتى عندما رأى الفلاحون الجاهلون هذا بانفسهم وأدركوه بتجربتهم الخاصة ، اصبحوا من انصار الشيوعية الواعين ، الذين اجتازوا مدرسة قاسية . مثل هذه التجربة هي التي يجب أن تشكل اساس جميع نشاطات اتحاد الشبيبة الشيوعية .

لقد اجبت على مسألة ماذا يجب ان نتعلم وماذا يجب ان نأخذ من المدرسة القديمة ومن العلم القديم . سأحاول ان اجيب الآن على مسألة كيف يجب تعلم هذا . الجواب هو : لن نستطيع ان نتعلم هذا الا اذا ربطنا ربطا محكما كل خطوة في نشاطات المدرسة ، كل خطوة في التربية ، في التثقيف والتعليم ، بالنضال الذي يخوضه كل الشغيلة ضد المستغِلين .

سأورد بضعة امثلة من تجربة عمل بعض منظمات الشباب لكي اشرح لكم كيف ينبغي لهذه التربية الشيوعية ان تجري . يتحدث الجميع في الوقت الحاضر عن محو الأمية . وتعلمون انه لا يمكن بناء المجتمع الشيوعي في بلد أمي . ثم انه لا يكفي ان تصدر الحكومة السوفياتية الاوامر ، او ان يطلق الحزب شعارات معينة ، او ان يُعيِّن عددا معينا من خيرة العمال لهذه المهمة . على الجيل الفتي نفسه ان يشرع في هذا العمل . الشيوعية تعني هنا ان يقول الشباب ، الفتيان والفتيات الذين ينتمون الى اتحاد الشبيبة : هذه هي مهمتنا ؛ سنوحد صفوفنا ونذهب الى المقاطعات الريفية لكي نقضي على الأمية ، لكي لا يصبح هناك اناس أميون بين جيلنا الصاعد . نحن نحاول ان نصل بالجيل الصاعد الى النقطة حيث يكرس نشاطاته لهذا العمل . ومن

المعروف انه لا يمكن ان نحوّل بسرعة روسيا الجاهلة الامية الى بلد متعلم . ولكن اذا ما اخذ اتحاد الشبيبة على عاتقه هـذه المهمة ، واذا ما اشتغل كل الناس لمنفعة الجميع ، فان الاتحاد ، الذي يضم بين صفوفه ٤٠٠,٠٠٠ شاب وفتاة ، سيحق له عن جدارة أن يسمي نفسه اتحاد الشبيبة الشيوعية . ومن مهام اعضاء الاتحاد ايضا ان لا يكتسبوا المعارف لانفسهم وحسب ، بل ايضا ان يساعدوا اولئك الشبان غير القادرين على ان يخلصوا انفسهم من ظلمات الامية بجهودهم الخاصة . ان تكون عضوا في اتحاد الشبيبة يعني ان تكرس عملك وجهودك للقضية المشتركة . ذلك هو ما تعنيه التربية الشيوعية . فقط في مجرى مثل هذا العمل يصبح الشاب شيوعيا والفتاة شيوعية . فقط اذا حققا نتائجا عملية في هذا العمل يصبحان شيوعيين .

خذوا ، مثلا ، العمل في بساتين الخضار التي تقع قـرب المدن . أوليست هذه مهمة ؟ ان هذه هي احدى المهمات التي تقع على عاتق اتحاد الشبيبة . فالناس تجوع وهناك ايضا مجاعة في المصانع . ولكي ننقذ انفسنا من هذه المجاعة ، يجب ان نطـور بساتين الخضار . لكننا ما زلنا ندير زراعة الارض بالطـرق القديمة . لذلك يجب على العناصر الاكثر وعيا ان تتولى امر هذا العمل . وعندئذ ستجدون ان بساتين الخضار تزداد عددا ، تنمو مساحة ، وتتحسن نتائجا . يجب على اتحاد الشبيبة الشيوعية ان يلعب دورا نشيطا في هذا العمل . ويجدر بكل اتحاد وكل منظمة ان تعتبر هذا كمهمتها هي .

ان اتحاد الشبيبة الشيوعية يجب ان يكون فرقة صداميـة تساهم في كل عمل وتضرب مثلا يحتذى بالمبادرة والاقدام . على الاتحاد ان يتصرف بطريقة تجعل اي عامل يرى فيه اناسا تعاليمهم قد لا يفهمها ، قد لا يؤمن بها مباشرة ، ولكن من خلال نشاطهم العملي يستطيع ان يرى انهم هم حقا الناس الذين يدلونه علـى الدرب الصحيح .

اذا فشل اتحاد الشبيبة في تنظيم عمله بهذه الطريقة في كل المجالات ، فمعنى هذا انه يسلك الطريق البرجوازي القديم . علينا ان ننسق تربيتنا مع نضال الشغيلة ضد المستغِلين لكي نساعد الشغيلة على انجاز المهمات التي تنبع من تعاليم الشيوعية.

على اعضاء الاتحاد ان يستخدموا كل ساعة من اوقات فراغهم في تحسين بساتين الخضار، او في تنظيم تثقيف الشباب في مصنع معين ... وهلم جرا . اننا نريد ان نحول روسيا من بلاد فقيرة وبائسة الى بلاد غنية . وينبغي على اتحاد الشبيبة الشيوعية ان يوحّد تثقيفه ، تربيته وتعليمه ، مع عمل العمال والفلاحين ، لكي لا يُغلق على نفسه في مدارسه ولكي لا يحصر نفسه في قراءة الكتب والكراريس الشيوعية . فقط بالعمل جنبا الى جنب مع العمال والفلاحين ، يستطيع كل امرىء ان يصبح شيوعيا غير مزيف . وينبغي ان نجعل الجميع يدركون ان كل اولئك الذين ينتمون الى اتحاد الشبيبة هم متعلمون وفي نفس الوقت يعرفون كيف يعملوا . وعندما يرى الجميع اننا تخلصنا من اساليب الترويض القديمة التي تخص المدرسة القديمة واستبدلناها بالانضباط الواعي ، وان كل الشباب والفتيات يساهمون في السبوت الشيوعية (١) ويستخدمون كل مزرعة قرب المدن لكي يساعدوا السكان ـ فان الناس سيكفون عن النظر الى العمل كما كانوا ينظرون اليه من قبل .

على اتحاد الشبيبة ان ينظم المساعدة في القرية او في الحي بطريقة تؤمن ، مثلا ، النظافة او توزيع الطعام . كيف كان يتم هذا في المجتمع الرأسمالي القديم ؟ كل امرىء كان يشتغل لنفسه فقط ، ولم يكن احد ليهتم ما اذا كان هناك شيوخ او مرضى ، او ما اذا وقع كل العمل المنزلي على كاهل النساء الذين كانوا ، كنتيجة لذلك ، في وضع من الاستعباد والاضطهاد . فمن يترتب

---

١ ـ العمل الطوعي ، المجاني . ـ الناشر الروسي ـ

عليه محاربة هذا ؟ اتحاد الشبيبة . يجب عليه ان يقول : سنغيّر كل هذا ؛ سننظم كتائب من الشبان تساعد على تأمين النظافة او توزيع الطعام ، تقوم بفحص نظامي لكل بيت ، تشتغل بطريقـــة منظمة لاجل المجتمع كله ، موزعة قواها بشكل دقيق ومبرهنة على ان العمل يجب ان يكون عملا منظما .

ان الجيل الذي يبلغ من العمر اليوم حوالي خمسين عاما لا يستطيع ان يتوقع رؤية المجتمع الشيوعي. فهذا الجيل سينقرض قبل ان يأتي هذا المجتمع . لكن الجيل الذي يبلغ من العمر اليوم ١٥ عاما سيرى المجتمع الشيوعي وسيعمل بنفسه على بنائه . وهذا الجيل يجب ان يعرف ان هدف حياته كلها هو بناء المجتمع الشيوعي. وفي المجتمع القديم كانت تقوم بها بعض عائلات منفصلة عن بعضها البعض ، ولم يكن هناك احد لينسق العمل الا الملاكون العقاريون والرأسماليون، الذين كانوا يضطهدون جماهير الشعب. يجب ان ننظم كل العمل ، مهما كان قذرا قاسيا ، بطريقة تجعل كل عامل وكل فلاح يقول ، اني عضو في هذا الجيش ، جيش العمل الحر ؛ وسأكون قادرا على ان ابني حياتـــي بدون الملاكين العقاريين والرأسماليين ، وسأكون قادرا على ان أؤسس النظام الشيوعي . ان اتحاد الشبيبة الشيوعية يجب ان يربي الجميع منذ الصبى بروح العمل المنضبط والواعي . وبهذه الطريقـــة سنكون على يقين بأن المسائل التي تواجهنا اليـوم سيتم حلها . يجب ان نفترض انه ينبغي ان تمر عشر سنوات علـى الاقل لكي ننجز كهربة البلاد، ولكي نستخدم في ارضنا المعوزة آخر منجزات التكنولوجيا . وهكذا ، فان الجيل الذي يبلغ من العمر اليوم ١٥ عاما ، والذي سيعيش في مجتمع شيوعي بعد ١٠ او ٢٠ سنة ، يجب ان يتناول جميع مهماته التثقيفية بطريقة تجعل الشبان في كل يوم ، في كل قرية ، في كل مدينة ، يشاركون في الحـــل العملي لبعض المشاكل التي تتعلق بالعمل المشترك ، حتى ولو كانت احداها من اصغر المشاكل ، حتى ولو من ابسطها . وبقدر

ما يتم هذا في كل قرية ، وبقدر ما تتطـور المباراة الشيوعية ، وبقدر ما يثبت الشباب قدرتهم على توحيد العمل ، فبنفس القدر يتأمن نجاح البناء الشيوعي . ولن يستطيع اتحاد الشبيبة ان ينجح في توحيد نصف المليون من اعضائه في جيش موحد ، وأن يكسب الاحترام الشامل ، الا اذا نظرنا الى كل خطوة يخطوها من وجهة نظر نجاح هذا البناء ، الا اذا سألنا انفسنا ما اذا كنا قـد وضعنا جميع امكانياتنا لكي نكون شغيلة متحدين وواعين سياسيا.

حول اهمية المادية المناضلة

(مقتطـف)

...... واحدة من اكبر واخطر الاخطاء التي يرتكبهـــا الشيوعيون (كما يرتكبها عموما الثوريون الذين اجتازوا بنجـــاح بداية ثورة عظيمة) هي الفكرة القائلة بأن الثورة يمكن ان يصنعها الثوريون وحدهم . عكسا لذلك ، فان كل العمل الثوري الجدّي يتطلب ، لكي يكون ناجحا ، الفهم والترجمة العملية للفكرة القائلة بأن الثوريين قادرون على ان يلعبوا فقط دور طليعة الطبقـــة النشيطة والمتقدمة فعلا . ان الطليعة لا تؤدي مهمتها كطليعة الا عندما تكون قادرة على ان تتجنب التحول الى طليعة منعزلة عن الجماهير التي تقودها وتكون قادرة على ان تقود الغالبية العظمى الى الامام . وبدون تحالف مع غير الشيوعيين في اكثر المجالات تنوعا من النشاط ، لا يمكن ان يكون هناك اطلاقا اي عمل شيوعي بنّـــاء .

ان هذا يشير بطريقة مماثلة الى مهمة الدفاع عن الماديـــة والماركسية ، التي اخذتها على عاتقهـــا مجلة « تحت رايـــة الماركسية» (١) . ولحسن الحظ ، ان الاتجاهات الرئيسية للفكر

---

١ ــ مجلة فلسفية وسوسيو ـ اقتصادية ، شهرية ، صدرت في موسكو من كانون ثاني ١٩٢٢ الى حزيران ١٩٤٤ . ـ الناشر الروسي ـ

الاجتماعي المتقدم في روسيا تمتلك تقليدا ماديا صلبا . ان لم نقل شيئا عن بليخانوف ، يكفي ان نذكر تشيرينفسكي ، الذي تخلف عنه مرارا الشعبويون المعاصرون (الاشتراكيـــــون الشعبويون ، الاشتراكيون الثوريون ــ الخ) بحثا عن مذاهب فلسفية رجعيـة رائجة ، مفتونين ببهرجة ما يسمى «بالكلمة الاخيرة» في العلــم الاوروبي وغير قادرين على ان يروا تحت هذه البهرجة المنوعات المتعددة من الاستسلام الذليل امام البرجوازية ، امام اوهامهـــا وأمام فكرها الرجعي .

ومهما تكن الظروف ، فما زال لدينا في روسيا ــ وسيظل لدينا ، بلا شك ، حتى يمضي زمن طويل الى حد ما ــ ماديون من المعسكر الغير شيوعي ، ومن واجبنا المطلق ان نجند كل انصار المادية المتماسكة والمناضلة في العمل المشترك الذي يقتضي مقارعة الرجعية الفلسفية والاوهام الفلسفية لما يسمى «بالمجتمع المثقف». ان ديتزجــن Deitzgen الاب ــ لكي لا يخلط مع سليله الاديب الدّعي والقليل الحظ ــ عبَّر بشكل صحيح ، مناسب ، وواضح عن الفكرة الماركسية الاساسية عن الاتجاهات الفلسفية التي تسود في البلدان البرجوازية والتي تنعم بإجلال علمائها وصحفييها ، عندما قال ان اساتذة الفلسفة في المجتمع الحديث هم ، فـــي الواقع، وفي اغلب الحالات ، ليسوا شيئا سوى «خريجي مدرسة اللاهوت وخدامها المتزلفين» .

ان مثقفينا الروس ، الذين هم مولعون بأن يحسبوا انفسهم متقدمين ، كزملائهم فعلا في جميع البلدان الاخرى، ينفرون كثيرا جدا من الارتفاع بالمسألة الى مستوى الرأي الذي عبَّر عنـــــه ديتزجن . ولكنهم ينفرون من ذلك لانهم لا يستطيعون ان ينظروا الى الحقيقة وجها لوجه . حسب المرء ان يعطي اهتماما قليلا الى تبعية مثقفي اليوم ازاء البرجوازية السائدة ، فيما يتعلـــــق بالسياسة ، بالشروط الاقتصادية العامــة ، بالعادات والاعراف وهلم جرا لكي يفهم كم كان راي ديتزجن عادلا وصارما . حسب

المرء ان يتذكر الغالبية العظمى من التيارات الفلسفية الرائجة التي غالبا ما نشأت في البلدان الاوروبية ، بادئا ، على سبيل المثال ، بتلك التي ارتبطت مع اكتشاف الراديوم ومنتهيا بتلك التي تحاول الآن ان تتشبث بأذيال اينشتاين ، لكي يكتسب فكرة عن الارتباط بين المصالح الطبقية والموقع الطبقي للبرجوازية وبين الدعم الذي تقدمه هذه البرجوازية الى جميع اشكال الدين من جهة ، والى المحتوى الاديولوجي للتيارات الفلسفية الرائجة من جهة اخرى .

سيرى المرء مما تقدم ان المجلة التي تنطلق لتكون لسان حال المادية المناضلة ، يجب ان تكون ، قبل كل شيء ، لسانا مناضلا ، بمعنى ان تفضح وتلاحق بدون كلل جميع «خريجي مدرســـــة اللاهوت وخدامها المتزلفين» المعاصرين ، سواء بدوا كممثلين للعلم الرسمي او ككتّاب احرار يسمون انفسهـــــم صحفيي «اليسار الديموقراطي» او صحفيي «الاشتراكية الايديولوجيين» .

في المقام الثاني ، مثل هذه المجلة يجب ان تكون لسان حال الالحادية المناضلة. لدينا الفروع الادارية، او على الاقل مؤسسات الدولة المسؤولة عن هذا العمل . ولكن هذا العمل ما زال ينفذ بميوعة قصوى وعدم كفاية كلية ، ذلك انه يعاني ، بشكل واضح، من سيطرة الشروط العامة لبيروقراطيتنا الروسية الاصيلة (رغم انها سوفياتية) . لذلك ، فالامر الجوهري والمهم جدا هو ان المجلة التي تنطلق لتكون لسان حال المادية المناضلة ، يجب عليها ان تتمم عمل مؤسسات الدولة لكي تصلحه وتبث فيه الحياة ، وأن تقود دعاية الحادية لا تكل ونضالا الحاديا لا يمل . يجب ان نتقصى بعناية الادب الذي يتناول هذا الموضوع في جميـــــع اللغات ، ان نترجمه او على الاقل ان نستعرضه وخاصة ما كان منه ذا قيمة ما بهذا الميدان .

ان انجلس ، وذلك منذ عهد بعيد ، نصح قادة البروليتاريـــا المعاصرين بأن يترجموا ويروّجوا بين الجماهير ، بين الشعب ، أدب نهاية القرن الثامن عشر الالحادي المناضل . انها فضيحة لنا

لاننا لم نقم بذلك حتى الآن (وهذا برهان ، من بين براهين عديدة، على ان الاستيلاء على السلطة في حقبة ثورية هو أسهل بكثير من معرفة كيفية استخدام هذه السلطة بدقة واحكام) . ان فتورنا ، همودنا وعجزنا تبرر احيانا بجميعانواع الدوافع «الطنانة»، مثلا، عندما يقال ان الادب الالحادي القديم للقرن الثامن عشر قد أكل عليه الدهر وشرب ، وليس علميا وصبياني ... الخ. ليس هناك ما هو اسوأ من مثل هذه السفسطة العلمية الكاذبة ، التي تستخدم كشاشة إمّا لتحجب التحذلق أو لتحجب سوء فهم تام للماركسية . بالطبع ، هناك كثير من الاشياء غير العلمية والساذجة في الكتابات الالحادية لثوريي القرن الثامن عشر. ولكن لا احد يمنعناشري هذه الكتابات مناختصارها وتزويدها بملحقات موجزة تشير الى التقدم الذي خطته الانسانية منذ نهاية القرن الثامن عشر في مجال النقد العلمي للدين ، وتنوه الى آخر الكتابات حول الموضوع .. وهلم جرا. فمن اكبر وأسوأ الاخطاء التي يمكن لماركسي ان يرتكبها هي ان يفكر بأن الجماهير الشعبية التي تعد عشرات الملايين من البشر (خاصة جماهير الفلاحين والحرفيين) التي حكم عليها كل المجتمع الحديث بالضلال، بالجهل والخرافة ، لا تستطيع ان تخلّص نفسها من هذه الظلمات الا بسلوك الصراط المستقيم لثقافة ماركسية صرف . هذه الجماهير ينبغي لنا ان نزودها بالمواد الاكثر تنوعا للدعاية الالحادية ، ينبغي لنا ان نعمل على ان تلم بوقائع في اكثر مجالات الحياة تنوعا ، ينبغي ان نلفت انتباهها بهذه الطريقة وتلك الطريقة ، لكي نثير اهتمامها ، نوقظها من سباتها الديني وأن نهزها حتى الاعماق وبكل الوسائل .

ان الكتابات الحادة ، الحية والموهوبة لإلحاديي القرن الثامن عشر ، التي هاجمت بذكاء وعلانية الفئة السائدة من رجال الدين ، ستبرهن غالبا على انها ملائمة لانتشال الناس من سباتهم الديني اكثر من الف مرة من بدائه الماركسية ، البليدة والجافة ،

التي تسود في ادبنا والتي (لا داعي لاخفاء الحقيقة) غالبا ما تشوه الماركسية ، فضلا عن انها غير مزودة ، كليا تقريبا ، بوقائـــع مصطفاة بمهارة . لقد ترجمنا الى لغتنا كل آثار ماركس وانجلس الهامة . وليس هناك اطلاقا اية اسباب تجعلنـــا نخاف من ان الالحادية القديمة والمادية القديمة يمكن ان تظـــلا غير مكتملتين بالتصحيحات التي ادخلها ماركس وانجلس . ان الشيء الاكثر اهمية ـ وهذا هو ما يتغافل عنه في كثير من الاحيان شيوعيونا من الماركسيين المزعومين الذين لا يفعلون شيئا غير تشويـــه الماركسية عمليا ـ هو ان نعرف كيف نثير اهتمام الجماهير التي ما زالت كليا امية باتخاذنا موقفا واعيا ازاء المسائل الدينيـــة وبممارستنا نقدا مستنيرا للدين .

من جهة اخرى لنلقي نظرة على ممثلي النقد العلمي الحديث للدين . ان هؤلاء الناطقين باسم البرجوازية المثقفـــة هم دائما تقريبا «يكملون» تفنيداتهم الخاصة للخرافات الدينية بحجـــج تفضحهم مباشرة كعبيد ايديولوجيين للبرجوازية ، كـ«خريجـــي مدرسة اللاهوت وخدامها المتزلفين» .

لنعطي مثلين . نشرَ الاستاذ ر.ي. ويبر R.Y. Wipper في ١٩١٨ كتابا صغيرا : «اصل المسيحية» (دار فاروس للنشر ، موسكو) . في عرضه لنتائج العلم الحديث الرئيسية ، لا يمتنع المؤلف وحسب عن محاربة الخرافات والاكاذيب التي هي سلاح الكنيسة باعتبارها منظمة سياسية ، لا يتملص من هذه المسائل وحسب ، بل ايضا يزعم ـ زعما مضحكا حقا ورجعيا ـ بانه يرتفع الى مستوى اسمى من كلا «التطرفين»: المثالي والمادي . ان هذا تزلف للبرجوازية الحاكمة ، التي تنفق على نطاق العالم باسره مئات الملايين من الروبلات ، التي اقتطعتها من الفوائد المنهوبة من فائض قيمة عمل العمال ، لدعم الدين .

ان العالِم الالماني المعروف ، آرثـــر دروز Arthur Drews بينما دحض الخرافات والاوهام الدينية في كتابــــه «اسطورة

المسيح» ، وبرهن على ان المسيح لم يوجد قط ، حكم في نهاية كتابه لصالح الدين ، لكن لصالح دين مجدد ، منقح ، ملطف وقادر على مقاومة «سيل المذهب الطبيعي المتنامي يوميا» (الطبعة الالمانية الرابعة ، ١٩١٠ ، ص ٢٣٨) . اننا هنا امام رجعي صريح وواع يساعد علانية المستغلين على استبدال الخرافات الدينية القديمة المتعفنة بخرافات جديدة ، اكثر حقارة وبشاعة .

ان هذا لا يعني ان علينا ألا نترجم دروز Drews . انما يعني ان الشيوعيين وجميع الماديين المتماسكين ، عندما يتحالفون الى هذا الحد او ذاك مع القسم التقدمي من البرجوازية ، ينبغي عليهم ان يفضحوه بلا وجل عندما ينعطف نحو الرجعية . انما يعني ان التملص من التحالف مع ممثلي برجوازية القرن الثامن عشر ، الحقبة التي كانت فيها ثورية ، سيكون خيانة للماركسية والمادية، لان «التحالف» مع الدروزيين، بشكل او بآخر وبدرجة او بأخرى، هو جوهري بالنسبة لنا نحن الذين نناضل ضد سيطرة المجهلين الدينيين .

ان مجلة «تحت راية الماركسية» التي تنطلق لتكون لسان حال المادية المناضلة ، ينبغي لها ان تكرس كثيرا من صفحاتها للدعاية الالحادية ، ولاستعراض الكتب من هذا القبيل ولمعالجة العيوب الخطيرة لنشاط دولتنا في هذا الميدان . ومن المهم ، بوجه خاص ان تستخدم الكتب والكراريس التي تشتمل على كثير من الوقائع العينية والمقارنات التي تبين العلاقة بين المصالح الطبقية والمنظمات الطبقية للبرجوازية المعاصرة وبين مؤسسات وهيئات الدعاية الدينية .

ان كل المواد التي تتعلق بالولايات المتحدة الاميركية ، حيث الارتباط الدولوي الرسمي بين الدين والرأسمال يبدو أقل ظهورا، ذات اهمية قصوى . لكن بالعكس نرى بشكل اكثر وضوحا ان ما يسمى «بالديموقراطية الحديثة» (التي يسجد امامها بخشوع المناشفة ، الاشتراكيون الثوريون ، وجزئيا الفوضويون ... الخ)

هي ليست شيئا سوى حرية التبشير بما يفيد البرجوازية ، اي، التبشير باكثر الافكار رجعية ، بالدين ، بالتجهيل والدفاع عن المستغلين ... الخ .

يود المرء ان يامل بأن المجلة التي تنطلق لتكون لسان حال المادية المناضلة ، ستزوّد جمهور قرائنـــا باستعراض الادب الالحادي ، مبيّنة لأي حلقة من القراء ومن اي ناحية يلائم هـذا الكتاب او ذاك . وعلينا ان نشير ايضا الى ما ظهر عندنا من كتب (ينبغي الاشارة الى الترجمات المقبولة فقط ، وهي ليست كثيرة) والى ما سيطبع من الكتب الالحادية في روسيا .

بالاضافة الى التحالف مع الماديين المنطقيين مع انفسهم الذين لا ينتمون الى الحزب الشيوعي ، فان هناك تحالفا آخر ، ليس اقل بل ربما اكثر اهمية بالنسبة للعمل الذي ينبغي للمادية المناضلة ان تؤديه ، هو التحالف مع ممثلي علوم الطبيعة الحديثة الذين يميلون الى المادية ولا يخشون من ان يدافعوا عنها ويبشروا بها ضد الحيرة الفلسفية الرائجة فيما يسمى «بالمجتمع المثقف» ، هذه الحيرة التي ترنو الى المثالية والشكوكية Scepticism .

ان المقالة التي كتبها تيمريازيف حـــول نظرية النسبيـــة لاينشتاين في العدد ١–٢ من مجلة «تحت راية الماركسية» ، تتيح لنا ان نامل بأن المجلة ستحقق هذا التحالف الثاني ايضا . ينبغي ان نعيره انتباها عظيما . وعلينا الا ننسى بأن من هذا الانقلاب الراديكالي الراهن للعلوم الطبيعية تلد باستمرار المدارس الفلسفية الرجعية ، الكبرى والصغرى ، والتيارات الفلسفيـــة ، الكثيرة والقليلة الاهمية سيان . اذا لم نلاحق المشاكل التي اثارتها الثورة الحديثة في علوم الطبيعة ، واذا لم نجتذب العلماء الى هذه المهمة التي تقوم بها المجلة الفلسفية ، فان المادية المناضلة لا يمكن ان تكون ، بحال من الاحوال ، لا مادية ولا مناضلة . اضطر تيمريازيف الى التحفظ في العدد الاول من المجلة ، على نظرية اينشتاين ، الذي رغم انه لا يقود شخصيا على حد قول تيمريازيـــف ، اي

هجوم نشيط على اسس المادية ، فانها قد احتكرت من عدد هائل من المثقفين البرجوازيين في كل البلدان . وان هذا لصحيح لا بالنسبة لإينشتين وحسب بل بالنسبة لكثير ، او قل ، لغالبية مصلحي علوم الطبيعة الكبار منذ نهاية القرن الثامن عشر .

لكي نتصرف بملء الوعي تجاه هذه الظاهرة ، فان علينا ان نفهم بأنه اذا لم تكن لدينا قاعدة فلسفية صلبة ، لا يمكن لكل من العلم الطبيعي والمادية ان يحافظ على مواقعه في النضال ضد انقضاض الافكار البرجوازية وعودة المفهوم البرجوازي للعالم . لكي يحافظ العالِم على مواقعه في هذا النضال ويقوده الى نهاية ظافرة ، عليه ان يكون ماديا حديثا ، نصيرا واعيا للمادية التي يمثلها ماركس ، اي ، يجب ان يكون ماديا ديالكتيكيا . لكي نحقق هذا الهدف، على المساهمين في «تحت راية الماركسية» ان ينظموا دراسة منهجية لجدل هيجل من وجهة نظر مادية ، اي من وجهة نظر الديالكتيك الذي طبّقه ماركس عمليا في **«رأس المال»** وفي مؤلفاته التاريخية والسياسية ، بكل نجاح الى درجة اننا نشهد الآن يوميا استيقاظ طبقات جديدة في الشرق على الحياة والنضال (اليابان ، الهند والصين) — اي ، إستيقاظ مئات الملايين من البشر الذين يشكلون جل سكان المعمورة والذين ، بسلبيتهم وسباتهم التاريخيين ، تحكّموا حتى الآن بالكساد والتعفن اللذين اصابا عددا من الدول الاوروبية المتقدمة — تفتح شعوب جديدة وطبقات جديدة على الحياة والنضال كل يوم يؤكد اكثر فاكثر سداد الماركسية .

بالتأكيد ، ان العمل الذي تحتمه مثل هذه الدراسة ومثل هذا التفسير ومثل هذه الدعاية للديالكتيك الهيجلي هو عمل صعب للغاية ، والتجارب الاولى في هذا الاتجاه ستصاحبها ، من غير شك ، الاخطاء . لكن الذي لا يخطىء ابدا هو الذي لا يعمل ابدا . باستلهامنا للطريقة التي طبّق بها ماركس الديالكتيك الهيجلي المدرك ماديا ، فاننا نستطيع وينبغي لنا ان نطور هذا

الديالكتيك من جميع النواحي ، أن نطبع في المجلة مقتطفات من مؤلفات هيجل الرئيسية ، ان نفسرها ماديا ونعلّق عليها بمساعدة امثلة عن كيفية تطبيق ماركس للديالكتيك ، وايضا بأمثلة مأخوذة من مجال العلاقات الاقتصادية والسياسية ، هذه الامثلة التي يوفرها لنا التاريخ الحديث ، خاصة الحرب الامبريالية والثورة الراهنتين ، بغزارة . وفي رأيي ، ان فرقة المحررين والمساهمين في «تحت راية الماركسية» ينبغي عليها ان تكون نوعا من «جمعية الاصدقاء الماديين للديالكتيك الهيجلـــي» . ان العلماء الطبيعيين الحديثين (اذا عرفوا كيف يبحثون ، واذا تعلمنا ان نساعدهـــم) سيجدون في الديالكتيك الهيجلي ، المفسر ماديا ، سلسلة مـــن الاجوبة على المشاكل الفلسفية التي ما زالت تطرحها ثورة العلوم الطبيعية والتي تجعل المثقفين المعجبين بالطراز البرجوازي «تزل بهم أقدامهم» في الرجعية .

اذا لم تضع لنفسها مثل هذه المهمة وتحققها منهجيا ، فـان المادية لا يمكن ان تكون مادية مناضلة . بل ستظل ، على حـــد تعبير شيدرين ، مقتولة اكثر منها مقاتلة . وبدون هذا ، فـان العلماء البارزين سيظلون غالبا كما كانوا في الماضي ، عاجزين عن وضع استنتاجاتهم وتعميماتهم الفلسفية . لان علم الطبيعة يتقدم بسرعة فائقة ، ويجتاز حقبة من الانقلابات الثورية العميقة جدا وفي جميع المجالات ، الى درجة انه لا يمكن باية حال ان يستغني عن الاستنتاجات الفلسفية .

وختاما ، ساستشهد بمثال لا شأن له بالفلسفة ولكنه يتعلق في جميع الاحوال بالمسائل الاجتماعية التي ترغب «تحت رايـــة الماركسية» في أن تعيرها اهتماما .

انه مثال عن الطريقة التي يستخدم بها ، في الواقع ، العلم الحديث المزيف كوسيلة لنقل المفاهيم الرجعية الاشد فظاظـــة والاكثر اثارة للقرف .

لقد تسلمت مؤخرا نسخة مـــن مجلة «الاقتصادي» عدد (١)

(١٩٢٢) التي يصدرها الفرع الحادي عشر «لجمعية التكنيك الروسية» . ان الشيوعي الشاب الذي ارسل لي هذه المجلة (من المحتمل ان الوقت لم يتوفر له لكي يطلع بنفسه على محتوياتها) عبّر عن رأي من اشد الآراء تعاطفا معها . في الواقع ، ان المجلة ـ ولا اعرف الى اية درجة من الوعي ـ هي لسان حال الرجعيين العريقين المتنكرين ، بالطبع ، تحت عباءة العلم ، والروح الديموقراطية .. وهلم جرا .

ان واحدا يقال له سوروكين ينشر في هذه المجلة ابحاثا شاملة، يزعم انها «سوسيولوجية» ، حول «تأثير الحرب» . هذا المقال المتعالم يزخر بمراجع تاريخية الى الاعمال «السوسيولوجية» للمؤلف والى اساتذته وزملائه العديدين في الخارج .

وهذا نموذج عن تبحره في العلم :

في ص ٨٣ ، اقرأ : «في مقابل كل ١٠٫٠٠٠ زواج في بتروغراد يوجد هناك ٩٢٫٢ حادثة طلاق ـ رقم رهيب . في مقابل كل ١٠٠ زواج ملغى ، يوجد هناك ٥١٫١ زواج دام أقل من سنة ، ١١ بالمئة اقل من شهر واحد ، ٢٢ بالمئة اقل من شهرين ، ٤١ بالمئة أقل من ثلاثة الى ستة اشهر ، وفقط ٢٦ بالمئة اكثر من ستة اشهر . هذه الارقام تشهد ان الزواج الشرعي الحديث هو شكل يخفي ما هو ، في الواقع ، علاقات جنسية خارج الزواج ، ويمكن هواة «الحظ السعيد» من ان يلبوا شهيتهم «بطريقة شرعية» .

مما لا شك فيه ان هذا السيد وكذلك القائمين بأمر «جمعية التكنيك الروسية» التي تصدر هذه المجلة وتفسح مجالا لهذا النوع من الكلام ، يعتبرون انفسهم انصارا للديموقراطية ، وسيرونها اهانة عظيمة اذا سميناهم بما هم في الواقع ، اعني ، بالاقطاعيين، الرجعيين ، «خريجي مدرسة اللاهوت وخدامها المتزلفين» .

ان الاطلاع ، ولو كان طفيفا ، على تشريع البلدان البرجوازية حول الزواج ، الطلاق والاطفال الطبيعيين ، وعلى الحالة الفعلية

بهذا الصدد ، سيبرهن لمن يهتم بالموضوع ان الديموقراطية البرجوازية الحديثة ، حتى في الجمهوريات البرجوازية الاكثر ديموقراطية ، تتكشف في هذه الناحية عن موقف اقطاعي ، حقا، تجاه النساء وتجاه الاطفال المولودين خارج نطاق الزواج الشرعي .

بالطبع ، ان هذا لا يمنع المنشفيك والاشتراكيين الثوريين وقسما من الفوضويين وكذلك كل الاحزاب المتفقة معهم في الغرب ، من النواح على الديموقراطية وانتهاك البلاشفة لها . لكن الثورة البلشفية ، في الواقع ، هي وحدها الثورة الديموقراطية المتماسكة في مادة الزواج والطلاق ووضع الاطفال غير الشرعيين. وهذه مسألة تؤثر مباشرة على مصالح اكثر من نصف السكان في اي بلد . ان الثورة البلشفية ، بالرغم عن العدد الضخم من الثورات التي سبقتها وسمت نفسها ديموقراطية ، كانت الثورة الاولى والوحيدة التي شنت نضالا حازما في هذه الناحية ضد الرجعية والاقطاعية على السواء وضد النفاق المألوف للطبقات الحاكمة والمالكة .

اذا كانت ٩٢ حادثة طلاق في مقابل كل ١٠٫٠٠٠ حالة زواج تبدو للسيد سوروكين رقما رهيبا ، فان المرء لا يملك الا ان يفترض اما ان المؤلف عاش وتربى في دير مفصول كليا عن الحياة الى درجة يصعب معها على اي امرىء ان يصدق وجود مثل هذا الدير، وإما انه يشوه الحقيقة خدمة لمصالح الرجعية والبرجوازية. ان اي امرىء عنده اطلاع ضئيل على الشروط الاجتماعية في البلدان البرجوازية يعرف ان الرقم الحقيقي لحوادث الطلاق الفعلية (بالطبع التي لم تقرها الكنيسة والقانون) هو في كل مكان اعظم بما لا يقاس . بهذا الصدد لا تمتاز روسيا السوفياتية على البلدان الاخرى ، الا بأن قوانينها ، بدلا من تكريس النفاق وغياب حقوق المرأة وطفلها ، تعلن صراحة ، باسم سلطة الدولة ، حربا لا هوادة فيها على جميع انواع النفاق وحرمان المرأة من حقوقها والاستهانة بكرامتها .

سيكون على المجلة الماركسية ايضا ان تشن حربا على هؤلاء الاقطاعيين «المثقفين» الحديثين . ومن المرجح ان عددا كبيرا منهم يتلقى مبلغا من اموال الحكومة ويستخدم من قبل الحكومة لكي يثقف شبابنا ، بالرغم عن انهم ليسوا اهلا للاضطلاع بهذا الدور تماما كما لن يكون اللوطيون اهلا لوظيفة النظار في المؤسسات المدرسية للاطفال الصغار .

لقد نجحت الطبقة العاملة في روسيا في اكتساب السلطة، ولكنها لم تتعلم بعد ان تستخدمها ، اذ لو عرفت لكانت منذ زمن طويل قد رحلّت بكل ادب مثل هؤلاء الاساتذة واعضاء الجمعيات المتحذلقة الى بلدان «الديموقراطية» البرجوازية . هذا هو المكان المناسب لمثل هؤلاء الرجعيين .

حسب الطبقة العاملة ان تريد لكي تتعلم .

آذار ، ١٩٢٢

«تحت راية الماركسية» ، العدد (٣)

الفهرست

هذا الكتاب

« نقد الدين هو الشرط الاولي لكل نقد » ، هذا ما كتبه ماركس في ١٨٤٣ ومنذ ١٢٩ عاماً والاشتراكيون الانتهازيون يهيلون التراب على هذه المسلمة الأساسية التي شكلت ولا تزال القاسم المشترك بين جميع اتجاهات النظرية الراديكالية للبروليتاريا الثورية .

يأتي اليوم هذا الكتاب ليدشن، لأول مرة في اللغة العربية ، نقد الدين والانتقال من نقد الدين الى نقد السياسة في وقت معاً. ويأتي أيضاً ليذكر الثوريين العرب بهذه المسلمة عبر نصوص لينين التي تترجم لاول مرة والتي ، رغم بعض ثغراتها ، تعبر عن الموقف الماركسي المادي ، الجدلي ، التاريخي ، النقدي والثوري من الدين وتدين ، دون رحمة ، الموقف الانته[illegible] من الدين .

كما يذكر الكتاب الثوريين العرب، عبر مدخل ع. الاخـ[illegible] «من نقد السماء الى نقد الارض» بمصير الدين في الغرب وبضر[illegible] نقد وريشه : المشهد، وبضرورة نقد الموقف الانتهازي من الاسـ[illegible] .

الثمن : ٢٥٠ ق. ل.
٥٠٠ ق. س.

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت